

مَعَ الْغَزَالِ فِي مَنْفَتِهِ مِنَ الضَّلَالِ

تأليف
أبُو بَكْرٍ أَبِي بَكْرٍ عَبْدِ الرَّزَاقِ

الطبعة الثانية



الناشر: دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة

إهداء

إلى روح أبي !

إليك أيها الروح الطاهر : ذكرى خالدة كخلودك...

... ذكرى الابن لأبيه ...

والأب يحيا عمره فإن قضى ...

... لم يمت من عاش في بنيه ...

ولذلك

أبو بكر أبو بكر عبد الرازق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى

كيف عرفت الغزالي - أثر الاحياء في نفسى -
كلمة عن التصوف - كيف عاجلت المنقذ من الضلال
صحبت الغزالي في كتبه ، فعشت وإياه حيناً من
زمان ، فكلفت روى بحبه ، وأصبح بينى وبينه فى
الله سبب . فاليوم إذ أنشر للناس « منقذه » إنما أودى
دينياً على فى حقه وجب ؛ ودين الغزالي أجل من أن
يؤدى ، ولكن هو جهد المقل ، والوفاء بما قدر .

لقد فتح الغزالي أمامى آفاقاً واسعة ؛ عرفته
فصرفنى عن لهُو الشباب ، وأدبنى فأحسن تصوير
الأدب . علمنى كيف أعيش فى نفسى مصداقاً لقوله
تعالى « سزىهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين
لهم أنه الحق » فلم أنطو على نفسى ، كما يفعل بعض
الشباب فى عزلة حزينة ، بل أردت ألا يحرفنى التيار ،

إن للغزالي على فضلاً ، ولى عنه مع الشباب
حديث ؛ أسوقه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو
شهيد .

تبدأ معرفتي بالغزالي ، منذ سنوات عدة ،
وما كان عهدي وقتذاك من الصبا ببعيد . أحسست
في نفسي نزعة دينية ، فرحت أتلمس في كتب الدين
ما يقرأ وما أجد فيه شفاء لنفسي الفتية ؛ وكنت أشعر
برغبة صادقة في أن أنمي هذه الرغبة ما استطعت ،
وأتجه بها الاتجاه العلمي الصحيح ، وكانت آمالي أكبر
من عقلي ، ورغبتى تربي على جهدى ..

وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً
لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذى لاكله أنت قادر
عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وكنت أسمع الكثير عن السيد جمال الدين الأفغانى
والأستاذ الإمام محمد عبده - يرحمهما الله - ثم وقع
في يدي ذلك الكتاب القيم الذى ألفه رشيد رضا -
تلميذ الأستاذ الإمام - في سيرة أستاذه الإمام ،

كما يعيش أكثر الخلق اليوم في غمرة ساهين ، نسوا
الله فأنساهم أنفسهم وهم في أنفسهم لا يبصرون .
فحبب إلى العزلة والبعد عن الناس ، لاستيحاشاً
وخروجاً عن طور الإنسانية ، ولكن سعيّاً وراء
الإصلاح ما استطعت ؛ إصلاح نفسي أولاً ، ثم
إصلاح غيرى بعد ذلك إن استطعت إلى ذلك سبيلاً .
فبدلت بمجالس القوم ، مجالس آخرين صالحين ،
يعقد الغزالي مجلسهم في كتبه ؛ فأعيش مع الصحابة
والسلف الصالح ، أستمع إلى حوارهم وحكمهم ،
وأعيش في جوهم ، وأستفيد من حكمهم خيراً في
أمر ديني ودنيائي . فكنت كمن بدل الغالي بالرخيص
بل كسبت أشياء وما خسرت شيئاً . أنصرف عن متع
الحياة ما قدرت ، لأنعم بشيء أكثر متعة ؛ سكون
نفسى المطمئنة إلى الله ، وإنصات عقلى إلى حديث
الغزالي ، والتسامى بغرائز الشباب إلى ما يجب أن
يكون ، في حدود الجهد والطاقة . ولا يزال هذا الجهد
في ازدياد مع الأيام ، لمن أراد وجه الله ، ولا تزال
تلك الطاقة في اتساع ، حتى يجد الشباب في نفسه
ما قاله المصطفى عليه السلام : روائح الجنة في الشباب .

وفيه عرض جذاب كذلك لحياة حكيم الإسلام ،
السيد جمال الدين الأفغانى ؛ فأقبلت على الكتاب ،
وكلما مضيت فى القراءة ، ازدادت فى نفسى انشراحا .

لقد كانت نزعتى الدينية ، ترغب فى صورة
خارجية ، تطل منها وتنفذ إلى الخارج ، وتنفس عن
نفسها بعض الشيء ، فكان لها هذا فى سيرة الإمامين
الحكيمين !

سكنت نفسى إلى هذه الصورة التى كونتها عن
الإمامين ، وارتضت بهما قدوة ومثالا ، وكان لهذه
الفكرة الأولى ، أكبر الأثر بعد ذلك ، فى جعلى
أقبل على دراسة كتب الأستاذ الإمام وكل ما خلفه من
آثار ، وما أثر عن الأفغانى كذلك .

وخلال مطالعتى فى سيرة الأستاذ الإمام ، عرفت
شيئاً كثيراً عن تصوف الفتى الشيخ محمد عبده ،
وتربية أستاذه الأفغانى له هذه التربية الروحية العالية ،
كما هداه الطريق من قبل شيخه درويش خضر .

ولما كانت صورة الأستاذ الإمام فى مخيلتى هى
ما قد عرفت ، لذا أحيت طريقاً سلكه ، وذلك

هو الحافز الخارجى ، يضاف إلى ذلك نزعة لى فى
الدين مكبوتة ، وذاك هو الدافع الداخلى ، فإذا بى
قد أقبلت على نفسى أسائلها :

ما التصوف ؟ وأين أجده ؟ وكيف سبيلى إليه ؟
لو كان الإمام حيا ، لشئى نفسى مما تجد ، أما
والإمام بعيد منى على قرب ، فأنا كالضارب فى البیداء
الواسعة ، لا أعرف لرجلى قبل الخطو موضعها .
أريد التصوف ولا أعرف سبيله ؛ إن كتبه لعدة ؛
ولكن ، بأىها أبتدىء ... ؟ لبثت كإبراهيم ، والكتب
الكواكب ، ولكن أربى ما كان منى ببيعيد !

لقد استجاب لى الأستاذ الإمام ، فأسلمنى إلى
الإمام الغزالى بدافع من الإلهام ، فإذا بإحيائه الخالد
بين يدى ، وإذا بى قد أقبلت عليه ذلك الإقبال الذى
ستدرى بعد قليل حديثه . ومن ثم كانت معرفتى بالإمام
الغزالى - إمام المتصوفة - على يدى كتابه الخالد
« إحياء علوم الدين » بعد أن قدم له الأستاذ الإمام
محمد عبده فى نفسى كما رأيت .

كان ذلك فى بدء مرحلة الدراسة الجامعية ؛ ولبث

الإحياء يصاحبني طيلة سنى الدراسة فيها ، أوليه عناية خاصة به ، حتى فرغت من كل ما طبع للغزالي من كتب ، وما كدت أفرغ من إحيائه الخالد ؛ وسألبث أداوم فيه النظر مادمت حيا !

والواقع أنى إذا كنت سأخص الإحياء في هذه المقدمة بقول ، فسبب ذلك أن الإحياء هو أصدق صورة للإمام الغزالي ، تعطى فكرة عنه لمن أراد صحيحة . ولن أتكلم عن ذلك الكتاب القيم بما فيه من نفائس ، فقد أفردنا لهذا كتاباً خاصاً بعون من الله ، بل سأمر بإشارة عابرة إلى تاريخي مع الإحياء ، فهو وصف لحالتي النفسية في ذلك الطور من حياتي ، وكيف كان التصوف لها دواء ، وكيف كان الغزالي الطبيب الصوفي الذى يشفى أنفسا وقلوبا ، ومن ثم أستخلص من ذلك عبرة للشباب ، أدعوه بعدها إلى مадعوت إليه نفسى ، إن وجد فى قولى ما يرضيه . فهى تذكرة ، تعيها الأذن الواعية ، وما يتذكر إلا أولو الألباب . وأمهّد لهذا بكلمة قصيرة .

يظن كثير من الناس أن التصوف هو هذه البدع المنتشرة التى يبرأ منها الدين ، وأن المتصوفة هم أولئك

الذين يظهرون فى الموالد بعائمتهم الضخمة - ولا سيما الخضراء منها - والمسابح التى تصل إلى الأرض طولاً . فهم ينشدون التصوف فى الموالد والأذكار ، وهم إذ يرون ما فيها من بدع وانتهاك لحرمة الدين يظنون بالتصوف الظنون . أوليس التصوف فى نظرهم هو ما يفعله هؤلاء ؟ وهم إذ يرون ما يفعله هؤلاء المبتدعة من أمور - ولا سيما أهل هذه الفرق المنتشرة - يكونون عن المتصوفة فكرة ! والواقع أنهم لا يعرفون التصوف ، ولا يعرفون عن المتصوفة شيئاً ؛ ولو عرفوا التصوف الصحيح ، لعرفوا من هم المتصوفة ، ولكنهم يعرفون التصوف بالرجال ، ولا يعرفون الرجال ، بالتصوف ؛ إذ هم لا يعلمون عن التصوف شيئاً ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

ليتهم يسمعون ما قاله الغزالي عن هذه الطريقة فى منقذه من الضلال ! « وبالجملة فإذا يقول القائلون فى طريقة أولها وهى أول شرائطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى » . ليعلموا أية

يقول صاحب عوارف المعارف مانصه « (١) ثم إن
 ايثارى لهدى هؤلاء القوم - يعنى الصوفية - ومحبتى
 لهم علما بشرف حالهم ، وصحة طريقتهم ، المبنية على
 الكتاب والسنة ، المتحقق بهما من الله الكريم الفضل
 والمنة ، حدا بى أن أذهب عن هذه العصابة بهذه
 الصبابة ، وأؤلف أبواباً فى الحقائق والآداب معربة
 عن وجه الصواب فيما اعتمدوه ، مشعرة بشهادة
 صريح لهم فيما اعتقدوه ، حيث كثر التشبهون واختلفت
 أحوالهم ، وستر بزيمهم المستترون وفسدت أعمالهم ،
 وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول علمهم سوء ظن
 وكاد لا يسلم من وقعة فيهم وطعن ، ظنا منه أن حاصلهم
 راجع إلى مجرد رسم ، وتخصصهم عائد إلى ! مطلق
 اسم الخ » .

وقد شهد الغزالي للصوفية كذلك - كما سترون
 فى المنقذ - بأنهم أرباب أحوال ، لأصحاب أقوال ،
 وأيقن ذلك حين سار فى طريقتهم ، عن عقيدة ،
 ومشاهدة ، فأمعن النظر فى شهادة ذلك القطب الجليل
 فى طريقة هؤلاء ، وتأمل كذلك ما جاء فى قول

(١) عوارف المعارف للامام السهروردي

فكرة خاطئة عن التصوف يعرفون !
 وليتهم يحيطون علما بما ذكره الغزالي فى الصوفية
 إذ يقول : « الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى
 خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم
 أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق ؛ بل لو
 جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين
 على أسرار الشرع من العلماء ليغير شيئاً من سيرتهم
 وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه
 سبيلاً . فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم
 وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء
 نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » ليعلموا
 أية فكرة مشوهة هم عن الصوفية آخذون . وإذا
 لاستطاعوا أن يحكموا حكماً صحيحاً على أولئك الذين
 يسرون فى الطرقات بعائمتهم الضخمة ، ومسابحهم
 الطويلة ، ولوجدوا لهم أى تسمية أخرى يطلقونها عليهم ،
 غير كلمة «صوفية» . وإذا لعرفوا أيضاً ماذا يطلقون
 على هذه الطرق المختلفة ، طرق مدعى الصوفية !
 أما من عرف التصوف ، فعرف أهله ، فهو يشهد
 له ولهم . بماذا ؟

السهروردي وكيف نفى أن يكون حاصل الصوفية راجعاً إلى مجرد رسم ، أو أن يكون تخصصهم عائداً إلى مطلق اسم ! وإنما ذكرت ذلك لسبب.

فقد اطلعت مرة على إحدى المجلات المصورة المنتشرة عندنا ، فإذا في إحدى صفحاتها صور مختلفة لبعض السادة المتصوفين ، وهم بملابسهم المختلفة الأشكال ، وأعلامهم وطبولهم ، وقد رفعوا أيديهم يقرءون أورادهم الخاصة ، فأسفت لذلك المنظر أسفاً شديداً ، أسف من يعرف قيمة شيء غال ، ويراه يعرض العرض الرخيص ، الذي يتنافى وحقيقته ، ومن يعرف قيمة الشيء يعمل بقول الشاعر
حرصى عليك هوى ومن يحرز ثميناً يبخل

فأنت لاتستطيع أن تمنع نفسك الضحك حين تطلع عليك هذه الصورة ، وتساءل نفسك : في أى عصر نحن ؟ وماذا يفعل هؤلاء ؟ أذاك هو المتصوف وأهكذا يفعل أهله ؟ لا ! جل المتصوف عن هذا «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» فما كان المتصوف بارتداء زى خاص ، أو قرع طبل وزمر ؛ إن المتصوف علاقة

بين المرء وربّه لا يعلمها إلا هو ؛ ما كان عرضاً لزي ، أو دعاية لطريقة ، وما كان المتصوفة حقاً ليرضوا بأن تنشر صورهم للناس ، كما يفعل الممثلون وقد تجمعوا «كالأنعام بل هم أضل سبيلاً» ! وإذا فرضنا المحال ، وكان المتصوف هو هذا ، إذاً لكان من الخطأ البين أن تؤخذ للمتصوفة صورة على هذا الوضع . فإن سر الصوفي كالمعنى ، وأوضاعه الخارجية حين يرفع يديه لله إذ يتلو ورده وما إلى ذلك ، كاللفظ ؛ واللفظ إنما يطلب من أجل المعنى ، إذ المعنى لاسبيل إلى ظهوره عادة إلا بالألفاظ ؛ فإن كان اللفظ لا يدل على معناه ، فهو عديم القيمة وكذلك حركات الصوفي ومظهره ، إنما هي لفظ الصوفي ، لامعناه ، وهى لاتدل وحدها على شيء . فإذا أراد الصوفي - لا المبتدع - أن يعرض تصوفه للناس ، لم يعرضه بضاعة أو دعاية ، بل دعوة في الله . فلا يعرف الناس أنه متصوف بحركات يديه ، وما يلبسه من ثياب غريبة ، وما ينشر له من صور في المجلات تحت عناوين ضخمة تشير إلى أنه وقومه يؤدون أورادهم . لمن ؟ لله ! فلا يسمع الناس من القراءة الخاشعة شيئاً ، لأن الصورة لاتنقل الدعاء ؛

وإن رأوا شكلاً عجباً : ملابس غريبة ، وأيديا مرفوعة ، فيكون الضحك بدل البكاء ، وتكون السخرية بدل الخشوع والابتهاال ، ويكون تصوير الفكرة الخاطئة عن التصوف وأهله « فتتركك لنسألهم أجمعين . عما كانوا يعملون » .

أما الخاصة ، فهي وحدها التي تعرف معنى التصوف وقيمه ، وإن كان أكثر الذين أوتوا شيئاً من العلم ، لا يعملون بما يعلمون . والتصوف علم وعمل ، وإن كان ليس من الضروري أن يكون العمل به انقطاعاً عن الدنيا ، وقطع الصلة بأهلها تماماً ، كما يأخذ على ذلك البعض ، بل هو على حد قول الشاعر :

قد سلك البلاد ثم عاداً ليخبر القوم بما استفاداً

وكذلك فعل الإمام الغزالي حين خرج من عزلته وعاد ينشر العلم ثانية بعد أن كان أقلع عن ذلك ، وسترى ذلك موضحاً في موضعه من الكتاب . فالتصوف إفادة للشخص ولغيره ، وهو أبعد ما يكون عن فكرة الأنانية والانقطاع ، وإن كانت الوحشة فيه لسبب ، وهي غير مقصودة لذاتها . ولاداعي

للافاضة في هذا الآن ، وحسبنا أن نذكر أن التصوف للمؤمن خير قرين ، وللروح خير علاج . ولأرجع إلى حديثي مع إحياء علوم الدين كما وعدت : وجدته كتاباً ضخماً في مجلدات أربعة . فأقبلت على الفهارس أستطلع موضوعات الكتاب من العناوين فشاقني ما قرأت ، ووددت لو استطعت أن أقرأ هذه المجلدات كلها في جلسة واحدة . لقد وجدت أخيراً ما كنت أنشده ، وارتاحت نزعتي لي في الدين محرومة ، إذ وجدت ما يشفي حرمانها ، ويغذيها بالحديث الحبيب . كان ذلك مساء ليلة ، حين أقبلت بكليتي على الجزء الأول ، وفي الكتاب الأول من ذلك الجزء ، يتكلم الإمام الغزالي عن العلم . فكان ذلك خير بداية ، وأطيب استفتاح ، وأفضل توجيه من الإمام الخالد الذكر ، لعشاق الحقيقة الخالدة ! ولحجة الإسلام أسلوبه الخاص في العرض والتعبير ، فإذا بي قد نسيت نفسي وما عدت أشعر بشيء مما حوالي ، سوى شيء واحد : الإمام الغزالي يتحدث إلى وأنا أنصت له . لم أكن أقرأ ، ولكن كنت أنصت بسمعي وقلبي وكل جوارحي لما يتلوه على الإمام من آيات بينات . لقد

بعث الغزالي حيا أمامي ، وأصبح يعيش في عصرى
 بل في حجرتي وأمام مكتبي ، ورحت أنا أرجع القهقري
 وأخترق من حجب الماضي أجيالا ... إلى عصر
 الغزالي ، لأعيش فيه بالروح وبالجسد وقد نسيت .
 لم أكن في مكتبي بل في حلقة من هاته الحلقات التي
 كان يعقدها الغزالي للتدريس ، وقد خلت الحلقة
 إلا منه ومنى ! .. لقد حيا أستاذي ، فقدر أن يفهمني
 وفني تلميذه ومريده ، فاستطاع أن يفهم منه ما يقول .
 والأرواح جند مجندة ، ما تعارف منها ائتلف - وقد
 كان - بالرغم من المسافة والزمن . وما ذلك على الله
 بعزيز .

وفي ذلك يقول الصوفية : إن النفوس التامة
 الكاملة ، إذا حان حينها وفارقت أجسادها ، تبقى في
 شغل بتأييد النفوس الناقصة المجسدة حتى تتم هذه
 وتكمل ، وتتخلص من حال النقص ، وتبلغ إلى حال
 الكمال في حدود طاقتها . كما أن الأولى المؤيدة ، ترتقي
 هي بدونها إلى حال من الكمال أشرف وأعلى ، وإن
 إلى ربك المنتهى . ويضربون لذلك مثلا : الأب الرحيم ،
 والأستاذ الرفيق ، وكيف يعلمان التلامذة والأولاد ،

ويخرجانهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلوم ،
 والمعارف ، فيتم تعليم التلاميذ والأولاد ، كما يكمل
 الأساتذة باخراج ما في قوة نفوسهم من علوم ومعارف
 وحكم ، إلى الفعل والظهور ، اقتداء بالله تعالى ،
 وتشبهاً به في حكمته .

وإن روح الغزالي لتؤيد مريديه بإذن الله ، فيسعى
 نورها بين يدي كتبه ، ويعم هذا النور قلوب تلامذته
 الروحانيين ، فإذا بهم يعقلون بقلوبهم من كتبه ما
 لا يعقله غيرهم ، مع رجاحة في العقل ، وسعة في
 العلم ، وسلامة في التفكير . وإذا بنصيب العقل من
 كتب الإمام - على عظمه - ضئيل إذا قيس بما تصيبه
 الروح ، وتنعم به النفس ، روح تلميذه الواثق به ،
 ونفس مريده الذي اطمأن اليه في الله ، وجعله إمامه .
 والغزالي أستاذ للعقول ، وأستاذ للقلوب ، فهو
 البحر من أي النواحي جئته . وقد يفهم القارئ العالم
 منه أشياء وأشياء ، ولكن يكون على قلبه أكنة أن
 يفقهه . ومن العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا العالمون
 بالله تعالى ، كما يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام .
 فلو أدرك بقلبه ، كما فهم بعقله ، لوجد أمامه من واسع

الآفاق في روض الغزالي ما يجعله يقول : لقد كنت في غفلة من هذا . أجل ! وبصرك اليوم حديد . ولولا أن كشف لك قلبك غطاءك لظالت عنه تحيد . إن قراء الغزالي يختلفون « فمنهم شقى وسعيد » . الشقى من أخذ الغزالي أخذ الفلاسفة ، فيذهب إليه كمن يحج إلى البيت العتيق ، ليستوثق من سلامة بنيانه ، ويرجع بصدى حرمانه . والسعيد من فهم الغزالي عقلاً وقلباً ، فحج وآب برحمة الله ورضوانه . إن رسالة الروح عند قوم هباء ؛ والروح من أمر ربى « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وإن رسالة العقل وحدها عند قوم – يضيقون رحمة الله – هي الكفاية والغنى . وما أوتينا من العلم إلا قليلاً « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » . وفي ذلك يقول الغزالي (١) « العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات » .

إن الروح إذا خلصت لله ، فأمدّها الله بنوره ، وأيدّها عقل مثقف يزن الأمور بسلامة تفكيره ، قدر

(١) أحياء

الإنسان أن يفعل عجباً . وهذا المصطفى عليه الصلاة والسلام يقول : إنه إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه . وقد تناول الغزالي هذه العين بالشرح ، قال : « (١) خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية ، فصار لا يبصر بها ، ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن قلبه » . ويقول أيضاً : « (٢) ومثل هذه المشاهدة لامطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجاتهم منهم » أما الذين عميت قلوبهم فهي في غطاء عن ذكر الله ، فسيجد أولئك يوماً صدق ما نادى به الصوفية ، حين يقال لمن قامت قيامته منهم « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . ستبصر عين فؤاده وهو يودع الدنيا « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » وإن كان أصحابنا يبصرون بهاته العين وهم أحياء ، وذلك فضل الله و « إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » .

(١) أحياء

(٢) أحياء

أذن مؤذن الفجر فأفقت ... رب أين كنت ؟
ماذا قرأت ؟ ما بال نفسي تهتز ؟ لقد ملك على الإمام
حالى ! سمعت منه حديثاً لا ككل حديث ، وعقلت
أشياء ، ما كنت من قبل أدريها . تفتحت فى نفسى
آفاق ، وشعرت بظماً ، ظمئى إلى طلب الحقيقة . لقد
شعرت بأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وهكذا
زادنى الغزالي فى العلم حباً ، العلم الذى ينفع صاحبه .
وليلة ذاك ، أخذت على إمامى بظهر الغيب عهداً ،
أن أطلب العلم ولا آلو فى طلبه جهداً . سأطلبه مادمت
حياً ، وحتى يودعنى الله بطن الأرض لحدا .

وأمضيت العهد بدمعى ...

وليس الذى يجرى من العين ماؤها
ولكنها روحى تذوب وتقطر

فخيل لى أن الغزالي يبتسم لى رضاء ، فقممت إلى
الصلاة وقد شعرت شعوراً ما شعرت بمثله قبلاً ...
إن الله معى .

قمت إلى الصلاة ، وما كاد مؤذنها ينتهى ،
أستلم القبلة وأقرأ خاشعاً «ربنا إنك تعلم ما نخفى

وما نعلن ، وما يخفى على الله من شئ فى الأرض
ولا فى السماء» . لقد. أشهدت الله على ما فى نفسى ،
ودعوته أن يشد أزرى ، ويشرك الغزالي فى أمرى ،
كى أسبحه كثيراً وأذكره كثيراً «والله بصير بالعباد» .
لقد صليتها صلاة ، وكأنها كانت صلاتى الأولى
وجدت لتلاوة القرآن حلاوة ، وأحسست فى القلب
خشوعاً . لقد كنت أجده للقرآن حلاوة من قبل ، وما كان
قلبي للرحمن عصياً ، ولكن كأن حلاوة له سبقت -
إذا قستها إلى ما أشعر به الآن - لم تك شيئاً ، وكأن
خشوعاً لله سبق ، ماهو بالخشوع ، حين تأخذنى
المقارنة .

وهكذا انتهت ليلتى الأولى مع الغزالي . ليلة
كليلة القدر ، فى حياتى خير من ألف شهر ، سلام
هى حتى مطلع الفجر .
جاءت الليلة الثانية

والثالثة وهكذا دوايلك ، ،
خمس سنوات .

إن هذه المقدمة لتضيق إذا أردت أن أذكر كل
ما أحب قوله . ولايسعنى المجال المحدود إن أخذت

في شرح كل ما استفدته من الغزالي وإحيائه الخالد ،
 فلذلك موضعه من كتاب آخر باذن الله ؛ ولكن حسبي
 الآن إشارة عاجلة إلى ما يتصل بموضوعنا بسبب .
 لقد أخذت أشعر كلما مضيت في قراءة « الإحياء »
 بتسلط حالة غريبة على ، زرع الغزالي بذرتها في
 نفسي ، وتعهدها بالسقيا من إحيائه وكتبه الأخرى .
 لقد أخذت « مراقبة النفس » تسيطر على بشكل
 لا أستطيع الفرار منه إن أردت ، وأصبح الغزالي
 يسيطر على في الله حتى غدا شأني وإياه ، ماقاله أخ لي
 من قبل :

وإني لأستحييك حتى كأنما

على بظهر الغيب منك رقيب

لقد كان درس الغزالي في محاسبة النفس ومراقبتها
 من أقوى الدروس ، وأشدّها في نفسي أثراً . نعم
 سمعنا عن فلاسفة كثيرين أنهم قالوا بوجوب مراقبة
 النفس ؛ وضرب على هذا الوتر علماء النفس كذلك ،
 وأساتذة الأخلاق ؛ وقديماً قال سقراط : أعرف
 نفسك . ولكن لم يخرج النغم من عند هؤلاء ، بحيث
 تمتزج به النفس طوعاً أو كرها ، كما انبعث النغم من

الغزالي ، فاستجابت له أنفوس وقلوب . وسر ذلك
 سهل يفسره قول للغزالي نفسه « الكلمة إذا خرجت من
 القلب وقعت في القلب » . ففرق بين معلم أخذ علمه عن
 الله كشفاً كالغزالي « وعلمناه من لدنا علماً » - وفي الرسالة
 اللدنية للإمام الغزالي نجده قد تناول هذا العلم وقربه
 إلى الأذهان بشكل لا يبارى - فهو يعتقد ما يقول ،
 ويعمل به ، ويبصر في نفسه ، ناظراً آيات ربه
 الكبرى ؛ ومعلم آخر عظيم العلم لدى الناس ، وإن
 كان عند الله ، وبالنسبة لمن علمه الله ، مأوتى من العلم
 إلا قليلاً ، وهو قلما فعل ما يقوله ، وإن فعل فهو
 كبير بالنسبة للناس ، ولكن صغير بجانب الغزالي
 وأقرانه ، فان « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »
 إن الغزالي إذا تحدث إليك في مراقبة نفسك ،
 فلن يظهر لك علمه الواسع وحججه وبراهينه فحسب ،
 بحيث يؤثر في عقلك ، فتسمع له وتؤمن بما يقول ثم
 تنصرف عنه بعد ذلك ، كما يحدث في الحياة إذ تؤمن
 بأشياء كثيرة ومبادئ لا حصر لها بعقولنا ، ثم يصرفنا
 عنها بعد ذلك صعوبة التطبيق أو ضرورات الحياة ،
 أو نفاق الحياة الاجتماعية وما إلى ذلك ، أي تعذر

التوفيق بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون - وعلم
الفلاسفة وأساتذة النفس من هذا النوع الدنيوى -
بل سيترك الغزالي نفسه تنساب في نفسك ، وسيجعل
عقله قطعة من عقلك ، وستشعر بخفوق قلبه مع
قلبك .

ويخفق صدرانا خفوقاً كأنما

مع القلب قلب في الجوانح ثان
فهو حديث قلب لقلب ، تخرج الكلمة من هذا
لتقع في ذاك ؛ فاذا نفسك قد سمت ، وإذا عقلك
قد اطمأن ، وإذا قلبك قد رضى ، لقد قربت منه
رشدًا . وهكذا تجد نفسك دون أن تشعر أو تريد ،
قد أصبحت عليها رقيبًا . لقد تفجرت خشية الله في
قلبك ، فلن تتبع هوائك ، ولن يكون أمرك فرطًا ،
بل حسبك « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا » .

إن السر الذى يملك به الغزالي أعنة النفوس هو
خشية الله و«إنما يخشى الله من عباده العلماء» وهو
محرك عنانك بهذه الخشية ، وسائر بك في طريق
الترقى من طور إلى طور ، ومن حال إلى حال ،
حتى يجعلك يوما من الدين «هم من خشية ربهم مشفقون»

ومن هذه الخشية ستتولد مراقبة النفس عندك ؛ ما كان
ذلك بحديث يساق ، وعلم يبهز ، أو لسان يقنع ،
ولإنما « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم »
وإني لأستدل على قوة أثر الكلمة إذا خرجت من
القلب فوقعت في القلب ، بتلك القصة التى نعرفها
عن نبينا عليه الصلاة والسلام ، إذ كان يرقد يوما
تحت الشجرة ، وقد أخذ الكرى بمعاقد أجفانه
الشريفة ، فمر عليه مشرك من صناديد قريش ، رأى
الرسول نائمًا ، وسيفه معلق على الشجرة ، فسولت
له نفسه أمرًا : مد يده إلى السيف فأخذه ، ثم أهاب
بمحمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، أن أفق يا محمد !
فأفاق الرسول ليرى الأعرابي على رأسه وقد شهر
بيده سيفه . قال له الأعرابي : قل لى يا محمد ، من
ذا الذى يعصمك الآن منى ؟ !

موقف ولاشك رهيب . ولكن لو كان فيه غير
الرسول .

فتبسم الرسول ضاحكاً من قوله ، وقال :

الله !!!

فوقع السيف من يد الأعرابي ، وقد اعترته

رجفة شديدة؛ فأخذ المصطفى - عليه الصلاة والسلام - سيفه وقال له :

- ومن ذا الذى يعصمك الآن منى ؟
قال :

- عفوك وكرمك ! فعفا صلى الله عليه وسلم عنه وهيا بنا ننظر : لماذا وقع السيف من يد الأعرابي المشرك عند ما تلفظ الرسول عليه السلام ، بلفظ الجلالة ؟ وما الذى هز عدو الله هذه الهزة وهو الذى لا يؤمن به ؟

إن سر القلوب ، كسر الكهرباء ، لا يعلمه أحد ، وإن رأى من آثارها عجباً .

فهب ذلك الأعرابي مست يده إذ ذاك تياراً كهربائياً ، إذأً لارتعش وسقط السيف من يده أيضاً . وكذلك كان تأثير تيار قلب الرسول فى قلبه . ولكن رب سائل : إن قلب الرسول لا ككل القلوب ، فمالك تقيس على ذلك قلوب البشر ؟ فأقول : إن لنا فى رسول الله لأسوة حسنة ، وتلك الصفة لم تكن مقصورة على النبي عليه الصلاة والسلام لأنها من خصائص النبوة ، فهى مما اختصه الله به من دون الناس ، بل سر القلب

متيسر لسائر البشر ، والرسول فى ذلك قدوتهم ، وإن كان لا يصل إلى هاته المرتبة إلا الأقلون .

ففسير بلوغ هاتيك جداً

تلك عليا مراتب الأتقياء

إنها لأولئك الذين يقتدون بالنبي عليه الصلاة والسلام ، ويتشبهون به فيما يمكنهم التشبه به من صفاته التى يشترك فيها وسائر البشر . إنها للصوفية ، إذ هم أرباب القلوب ، وأصحاب الأحوال ، وإن كانوا فى ذلك درجات « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وعلمائهم ورثة الأنبياء ، وإن « لهم الدرجات العلى » . لقد جمعوا علم الدنيا والدين . إن عرفت هذا فاذكر الغزالي خاشعاً ، وقل لوريث الأنبياء : إن قلبك يهدى البشر !

ربما يظن بى البعض المغالاة فيما أقول ، ولكن حسبي أن من ذاق عرف ، ومن حرم انحراف ، كما كان يقول الأستاذ الإمام يرحمه الله . وأنا أمسك القلم عن الاسترسال فى هذه المعانى بأكثر من هذا ، وأقول ما قاله الغزالي : ما لا يدرك بالذوق ، لا يعظم اليه الشوق .

وإني لأدعو الشباب ، أن يقبل على قراءة «الأحياء» ، وسيجد مصداق ماقلته في نفسه ، فيتبين له أنه الحق . هذا إذا عرف كيف يقبل عليه بقلبه وعقله معا ، مع خلوص نيته لله ، فان الأعمال بالنيات ، والله يوفق دائماً من يريد وجهه ، فهو ولي المتقين « وهو يتولى الصالحين » . ولا تكن يا شباب فيمن ضل واتخذ من دون الله أولياء ، لا يستطيعون نصرك ، ولا أنفسهم ينصرون .

إن الشباب المثقف يقبل على قراءة الفلسفة ، فلم لا يقبل أيضاً على قراءة التصوف ، ويأخذه على أنه نوع من الفلسفة ابتداء ، فاذا مضى فيه ، أخذت كل نفس فيه قدرها ، وما هياه الله لها وفقاً لاستعدادها . وأنئذ ستفتح أمامه آفاق واسعة ، يرى فيها من آيات الله ومن آيات نفسه ، ما كان عنه من الغافلين . فإن كل باب يفتح بمفتاحه الخاص ، ومفتاح النفس المطمئنة ، هو هذه العلوم والمعارف الربانية .

وفي كل نفس أبواب ثلاثة : باب اللاطمئنان ، وباب اللوم ، وباب اللوسوسة والسوء .

والباب الأول هو الباب الذي إن فتحناه ، دخلنا

منه إلى النفس المطمئنة « يأتيها النفس المطمئنة » وهي أعلى مراتب النفس ؛ وتلك نفس الأنبياء ، والصديقين والأولياء ، والمتقين أولى الألباب .

والباب الثاني إن فتحناه ، ولجنا منه إلى النفس اللوامة ، التي ذكرها الله سبحانه في سورة القيامة « ولا أقسم بالنفس اللوامة » . وتلك درجة وسط بين النفس المطمئنة والنفس الوسوسة الأماراة بالسوء ، وهي الطريق إلى النفس الأعلى منها ، ولا يزال صاحبها كلما ارتكب فاحشة أو ظلم نفسه ، ذكر الله فاستغفر لذنبه ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصر على ما فعل وهو يعلم . وفي ذلك يقول الله تعالى « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » ويقول الحديث الشريف : « أن من تاب من الذنب كمن لا ذنب له » . فصاحب النفس اللوامة من « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللوم » وهو بسبيل تجنب هذا اللوم أيضاً ، إذ تأخذه نفسه دائماً باللوم والتقريع ، حتى يبلغ الدرجة التي كتبها الله له .

والباب الثالث ، باب النفس الوسوسة التي

ذكرها المولى سبحانه في سورة يوسف « إن النفس لأمارة بالسوء ». وهو الباب الذي يطرقه أكثر الخلق ، ويدخلون منه على نفوسهم ، فإذا دخلوه فهم بخارجين منه ، إلا أن يشاء الله .

أما عن الباب الأول ، فقل من يستطيع فتحه إلا من ذكرنا ، ومفتاحه كما قلنا ، هو العلوم والمعارف الربانية . ولكن صعوبة الوصول لاتعني الاستحالة ؛ فكل يستطيع أن يرتقى بنفسه من الدرجات إلى الدرجات بإذن الله ، إن جاهد نفسه « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » . إنه الجهاد الأكبر ، جهاد النفس . ومن لم يستطع أن يصل إلى مفتاح هذا الباب ، ثم وضعه في قفله ، ثم فتحه بعد ذلك ، فهو مستطيع شيئاً دون ذلك . فمفتاح هذا الباب ، هو العلوم والمعارف الربانية ، وهذا المفتاح لا يوضع في قفله إلا بالمجاهدة ورياضة النفس . ووضع في قفله لايغني كل شيء ، فعلى من « وصل » إلى ذلك أن ينتظر رحمة الله بعد ذلك ، فهو الذي يفتح عليه ، الفتح المبين وقد يكون حظه فقط ما وصل اليه من « عرفان » المفتاح ، ومجاهدة القفل ، أما « فتح »

الباب فان « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » . ولكن حسبنا أن في باب الاطمئنان هذا « طاقات » من رحمة الله الواسعة ، لأنه لما كان كل طريق صعب ، يحتاج في ولوجه وتحمل مشقته إلى ما يغرى بتحمل هذه الصعاب ، والوصول إلى فتح باب النفس المطمئنة لايلبغ إلا الأقلون ؛ لذا جعل الله جلت قدرته في هذا الباب تلك الطاقات من رحمته ، تفتح بين حين وآخر ، فهب نفحاتها على أولئك الذين يمسكون بمفتاح هذا الباب ، أولئك الذين يقرءون العلوم والمعارف الربانية ، فإذا هم يتعرضون لها ، ذلك حظهم من أمثال هذه القراءات ، وفي ذلك بقول الحديث الشريف « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » . ولا يكون التعرض لهذه النفحات السماوية ، إلا لمن أمسك بذلك المفتاح بيده : العلوم والمعارف الربانية ، وهي مفتاح باب النفس المطمئنة .

ولو لم يكن لقارئ هذه المعارف ، سوى هذه النفحات الربانية ، تهب عليه بين حين وآخر ، لكان ذلك حسبه . فتجد قارئ التصوف ، إذ هو ممسك

مفتاح ذلك الباب بيده ، قد أخذت تهب عليه نفحات
النفس المطمئنة ، وتشوقه إلى الصبر ، والمجاهدة ،
ورياضة الخلق ، والنزوع نحو الكمال ، والإحسان ،
وما إلى ذلك مما لا يدخل تحت حصر « وإن تعدوا
نعمة الله لاتحصوها » وفوق ذلك كله ، خشية الله
فيها حلاوة ومرارة ، فيها خوف ورجاء ، فيها يأس
وفيها أمل .

اليأس من الذنب حين يتعاضم في القلب الذاكر ،
فإذا الندام يجأر :

تعاضمني ذنبي !

ثم الأمل بعد ذلك في الله ورحمته ، فإذا الآمل
يقول :

.... فلما قرنته

بعفوك ربى كان عفوك أعظما

إنها خشية العارفين ، تلبسه حلة من السعادة ،
يروق له شكله فيها ، حتى يود لو استطاع أن يبقى
بهذا اللباس أبداً ، ويكون سعيداً . فان سأله الناس :
لم ؟ لم يحر جواباً . إن مقياسه غير ما يعرفون . فان قال
ربما ظنوا به الجنون ، وما به من جنة ؛ إن مابه معنى

ليس له في كلام الناس من لفظ . إن به جزءاً مما
قالته العرب في الرسول عليه السلام : لقد عشق محمد ربه !
إن مفتاح النفس المطمئنة في متناول الأيدي ،
في هذه العلوم والمعارف الربانية التي تجدها في كتب
الصوفية . فليقبل عليها الشباب وسيرى . وسيتعرض
خلال ذلك لنفحات الرب . فليجرب قبل أن يرفض
أو يقبل لى قولاً . وإذا كان وضع المفتاح في قفله
لا يتم إلا بالرياضة الروحية . وتلك قد تصعب عليه
في زماننا هذا ، فلا أقل من أن يحسك بذلك المفتاح
وهو في متناول يده . وليقرأ في التصوف إذن كما
يقرأ في الفلسفة - وسيرى في تلك دروساً بليغة من
الإمام الغزالي ونصائح عسى أن ينزلها قدرها حين
يطالع ما كتبناه في موقف الغزالي من الفلسفة مستقي
من « منقذه » - فأقبل ولا تخف إنك من الآمنين .
والآن ننتقل إلى الباب الثاني من أبواب النفس :
باب اللوم ، ذلك الباب الذي يوصلنا إلى النفس
اللوامة .

هذا الباب أيسر من سابقه بكثير . وهو في
متناول كل إنسان ولا يلزمنا حتى نظرقه إلا ضمير ،

يصحو تارة ويغفو أخرى . لكن إذا طالت غفوته فتلك هي النفس الأمارة بالسوء . إنما قصدنا الضمير الذى تكون صحوته أكثر من غفلته (١) . ولكن كيف سبيلنا إلى باب اللوم هذا ، نقرعه فتأذن لنا النفس اللوامة بالدخول ؟ هنا تظهر فائدة التصوف ، والجلوس إلى الغزالي فى إحدى حلقات «الاحياء» . سيأخذ حجة الاسلام بيده إن كانت تنوء تحت ثقل المعصية ، ولاتستطيع أن ترتفع إلى أعلى ، لتدق باب النفس اللوامة ، طالبة من الله الرحمة ، فيريه كيف يدخل على نفسه من باب الملامة . إن فى الاحياء والتعاليم الغزالية ، ما يعرف الشباب طريق باب الملامة فى نفسه ؛ ذلك الباب الذى من دخله كان آمناً . سيريه الغزالي كيف لا يصده الشيطان عن ذلك الباب إذا أخذ يعظم له معصيته وأنه لا أمل لمثله فى رحمة الله ، حتى ينقلب على عقبيه «خسر الدنيا والآخرة» «ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً» . سيزيل الغزالي ما ران على قلبه ، ويجلوهم بمرهم الملامة ، بالقدر

(١) «ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون» .

الذى يتفق وحالته . والإرشاد كالدواء إن زادت قطرة منه عن المقدر ، ربما كان فيها الهلاك . وقد تنبه الشيطان لهذا ؛ فتراه كثيراً ما يقصد من أراد التوبة ، ويترصد له عند ذلك الباب ، فيمد له فى شباك الملامة ، ويوسوس فى صدره ، معظماً له إثمه ، حتى تضيق نفس التائب ويظن أن الله لا يغفر له ، فينبى له اللعين إذ ذاك ويزعم أنه له من الناصحين ، ويقول له افعل ما شئت ، وخذ حظك من الحياة . ماذا تنتظر ، ما دام المصير إلى سقر ... ؟ !

لكن الغزالي يقظ ، سينوره ويريه كيف من مأمته يؤتى الحذر . ولا يزال يحدثه حتى يجد صاحبنا فى نفسه ما وجدته الشافعى فى نفسه ، فإذا به يقول معه : ولما قسا قلبي وضاعت مذاهبي

جعلت رجائي نحو عفوك سلماً

وهنا إذ يصل الغزالي بمريده إلى هذه الدرجة ، فقد أمن عليه ، فيدعه بعدها لرحمة الله ، وهى قريبة من المحسنين .

إن مفتاح باب النفس اللوامة هو ما ذكره الصوفية فى تعاليمهم وكتبهم . ومن قضى عمره لا يدق ذلك

الباب في نفسه هلك . ومن ظن أنه يفتح ذلك الباب بغير « مفتاحه » الأصلي ، وحسبه قراءة في علم النفس والفلسفة وما إلى ذلك ، ضل وكان من أولئك « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » . ربما حسب أنه قد وصل إلى نفسه اللوامة ، ولكن سيكون ذلك تليساً وخداعاً من الشيطان ، وإملاء له في الغي ليزداد إثمًا . فإن النفس اللوامة هي التي إن فعلت معصية لا تعود إليها ، فإن فعلت معصية من نوع آخر ، تثابت ولم تعد ، وهكذا حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، ويتوب الله على صاحبها تماماً . أما أن يأثم الإنسان صباحاً ، ثم يتوب مساءً ، ليعود لنفس المعصية في اليوم التالي ونفس التوبة ، وهكذا دواليك ، فتلك هي التوبة التي تكون شراً من الإثم نفسه ، واللوم الذي يزخرفه الشيطان لمن حرم نعمة الله ورحمته .

فليقبل الشاب على باب نفسه اللوامة ، وليأخذ المفتاح من التصوف ، وليعرف مكانه - حتى لا يتعبه التحري والتنقيب في عالم التصوف - في درج الغزالي ، من خزانة إحيائه .

أما عن الباب الثالث والأخير في مداخل النفس الثلاث ، فهو باب الوسوسة والسوء ، وهو باب الشيطان حيث اتخذ في النفس مسكنه « يوسوس في صدور الناس » وذلك الباب مفتاحه بيد الشيطان ، وحف ذاك الباب بالشهوات . والإنسان ليس في حاجة إلى أن يطلب مفتاح ذلك الباب ، شأنه مع البابين السابقين ، بل الشيطان في خدمته دائماً ، لا يغفل طرفة عين عن تقديمه له ، ليل نهار .

وهذا الباب في مدخل النفس ، عكس البابين السابقين . فالأولان في حاجة إلى من يفتحهما ، أما هذا الباب ، فمفتوح دائماً ، وهو في حاجة إلى من يغلقه ، فمنه هب لفحات جهنم ، وفي القلب لمتان ، كما يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام : لمة من الملك ، ولمة من الشيطان .

وإن أكثر ما يقرؤه المرء في الفلسفة وما إليها ، هو مفتاح لذلك الباب . فكلمة أغلقته نفحة من الله ، إذا بقراءة شيء من هذا القليل ، تكون المفتاح الذي سرعان ما يديره الشيطان في قفله ، فإذا بلفحات الزيف والضلال قد أخذت تهب على الضحية من حيث

لا يدري ، وهو يظن بنفسه العلم . ومن هنا كانت قراءة الفلسفة لا تسمن ولا تغني من جوع بالنسبة لبعض الناس ، وإن أتعبت العقل ، وظن أصحابها بأنفسهم علما . وهم علماء حقاً ؛ ولكن أتدري مبلغهم من العلم؟ إن كنت لا تدري فاسأل أهل الذكر إن كنت لا تعلم . ولقد تولى الإمام الغزالي بيان ما غمض عليك ، في إحيائه « كل ما عرفنا نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء ، والأولياء ؛ وما عرفوه نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفه الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما ؛ ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما ، بل هو إلى أن يسمى دهشاً وحيرة ، وقصوراً وعجزاً ، أقرب . فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم وقال : وما اوتيتهم من العلم إلا قليلاً . »

صدق ما قاله الغزالي أولاً تصدقه « فإن حاجوك

فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » .

أنا أدعو إلى الله على بصيرة ، وأقول إن سبيل المعرفة الحقيقي ، إنما تجده عند الصوفية ، أهل البصائر والقلوب ، أولئك الذين أخذوا العلم عن الله كشفاً ، فعلمهم الله من لدنه علماً . إنهم أولئك الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه . إن المعرفة الحقة عند أولئك الذين جعلوا شعارهم ما قاله أحد أئمتهم الأعلام ، الغزالي : « أجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء ، فتجول بقلبك في أقطارها ، إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجي لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : « رأى قلبي ربي » .

وليس يعيننا الآن أن نسترسل في الكلام بصدد باب الوسوسة ، من حيث اتباع الشهوات وما إلى ذلك ، ففيما ذكره الغزالي في إحيائه كفاية لمن أراد ، وحسبنا الإشارة . ولكن يعيننا الكلام في هذا الباب ، من حيث أحد مفاتيحه ، مفتاح الاطلاع ، وبيان

طريقة الشيطان في استعمال ذلك المفتاح ، وعلاج ذلك عند المتصوفة ، ممثلين في الغزالي . وهنا يلزم التعريف بأن باب الوسوسة هذا ، له مفاتيح لاجصر لها ، أعدها الشيطان بكيده . فمفتاح مصنوع من العلم - العلم الذي لا ينفع صاحبه - ومفتاح مصنوع من الشهوة ، ومفتاح مصنوع من الفن ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه ولا يدخل تحت حصر . وهذا عكس البابين الأولين ، فليس لهما إلا مفتاح واحد ، إما استعملناه فانفتح الباب بمشيئة الله ، أو استعملنا غيره ، فضررنا في حديد بارد . فان وجه ربك لواحد ، وللشيطان عدو الخلق وجوه .

يخطيء المرء حقيقة نفسه ، كما يخطيء المرء الطريق . وقد ينتبه من ضل الطريق في الوقت الملائم ، فيعود أدراجه من حيث أتى ، وقد لا ينتبه إلى خطئه إلا بعد أن يسبق السيف العذل ، فإذا بزاده قد فرغ ، فيهلك قبل أن يستطيع الرجوع . ومثل ذلك من يخطيء فيلج باب النفس الوسوسة الأماراة بالسوء ، مستعملاً مفاتيحه ، وهو يظن أنه بسبيل النفس المطمئنة ، أو النفس اللوامة التي تعدده نحو الكمال . وقد ينتبه

لخطئه هذا قبل نفاذ زاده من عمره ، فيعود من حيث أتى ، وفي ذلك يقول الحديث الشريف - في أحد شقيه - إن المرء ليعمل بعمل أهل النار حتى إذا لم يبق بينه وبينها غير شبر واحد ، فإذا به يعمل عمل أهل الجنة ، فيكون من أهلها . ومن زحزح عن النار فقد فاز . وقد لا ينتبه المرء أبداً لخطئه هذا ، فيضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعا ، وما يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فيكون من الأخسرين أعمالا . وقد ينتبه لخطئه هذا ، ولكن بعد فوات الأوان ، إذ يكون زاده من عمره قد فرغ فيقع في الطريق وهو لا يرد للحياة ليعمل غير ما كان يعمل . إن يقظته للحقيقة كيقظة فرعون حين أشرف على الغرق . وقد تنبه الإمام الغزالي لهذا ، فتدارك من أمره ما فات ، إذ كان يطلب في بدء حياته العلم الذي ينال به الصيت والجاه ، فأفاق قبل فوات الأوان ، وأصبح يطلب العلم الذي يعرف به سقوط رتبة الجاه ، كما سيرى القراء في فصول الكتاب . وفي ذلك يقول ما نصه : « كنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه وأدعو إليه بقولي وعملي ،

وكان ذلك قصدى ونيى. ولكنه أفاق « أما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه ».

فعلى المرء أن ينظر جيداً ، أى زاد من العلم أخذ ، أينفعه ذلك العلم فى الآخرة ، أم سيكون عليه حسرات ؟

وليجعل أسوته فى ذلك الغزالى حين انتبه فإذا هو « مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة » كما سترى فى اعترافاته فى المنقذ وفى ذلك يقول فى عبارته الخالدة : « أردنا أن نطلب العلم لغير الله ، فأبى العلم إلا أن يكون لله ».

إنك لتجد الشباب يقبل نهماً على قراءة الفلسفة ، وما كتبه الفلاسفة القدماء والمحدثون ، وهو يبغى من وراء ذلك تثقيف نفسه . ولكن أى تثقيف هذا ؟ إنه يفتح باب الوسوسة فى نفسه ، وسترقص كثير من علامات الاستفهام أمام عينيه حيرى ، قبل أن يستطيع إيجاد جواب لها تطمئن إليه نفسه ، ويرتاح له عقله . وسأضرب لذلك مثلاً واقعياً ، فقد روت

الجرائد خبر ذلك الشاب الذى كان يدرس الفلسفة فى الجامعة ، ثم انتحر بأن ألقى نفسه فى النهر ، بعد أن خلف وراءه خطاباً ، إذا عرفت مضمونه عرفت قيمة ما ذكره الغزالى فى الفلسفة حين دعا إلى الزجر عن قراءتها فى « منقذه » لذلك الصنف من الناس ، وكما ستراه موضحاً فى كتابنا بإذن الله .

كتب ذلك الشاب البائس ، أن الفلسفة قد أتعبت عقله ، وأن روحه أصبحت حائرة ، تطلب البراهين فيعوزها التحقيق ، حتى أصبح وقد سئم الحياة التى لا معنى ولا قيمة لها ، فهو يريد الخلاص بنفسه !
أرأيت كيف فتح هذا الشاب المسكين باب النفس الوسوسة بمفتاح الفلسفة ، فضل وأصبح أمره فرطاً ؟ ! لقد كان يبغى تثقيف نفسه ، فأدى به الأمر حين أخطأ الباب فى نفسه - على ما سبق أن بيناه - إلى أن يتلف نفسه ، وما كان ذلك قصده . وقد يعترض أحد بأن هذه حالة فردية جاءت على خلاف الأصل ، والشاذ لا يقاس عليه . ولكن الواقع أن هذه الحالة صورة من حالات أخرى لاحصر لها ، نعلم ببعضها ، ويحكم البعض صدورهم عليها فلا نعلم بها .

ولو شئنا أن نسوق الأمثلة لما يشبه هذه الحالة من التي يعلمها كثير من الناس لضاق بنا المجال. وما لنا نذهب بعيداً ؟ دونك أئمة الفلسفة أنفسهم ، وانظر ماذا فعل الكثير منهم بأنفسهم ؟ هل أذاك حديث جيته ، شاعر الألمان وفيلسوفهم العظيم ؟ لقد جعل الانتحار « مودة » بين الشباب الألماني ، ولكم تشبه شاب منهم يبطل آلام فتر !

إن أكثر الفلاسفة ، جاحدون أو شاكون ؛ ومن سار في طريقهم فسيصل إلى ما وصلوا إليه ، إلا من رحم ربي ، وقليل ما هم . إن الفلسفة لها أهل ، وهي للخاصة فحسب كما سترى . فانتظر قليلاً فلدينا لذلك حديث .

لا يفهم من حملنا على الفلسفة هذه الحملة ، أننا ندعو إلى الجهل كما يفعل الرجعيون ، بل « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها » فنحن لم نهدم شيئاً ونكتف ، بل على أنقاضه أردنا أن نشيد ماهو خير منه ، فرحنا ندعو إلى قراءة التصوف ؛ ففيه غذاء لعقل ، وشفاء لقلب ، ورياضة لروح ، وسعادة لنفس . وفي التصوف فلسفة ولكن من نوع آخر

يفسره قول الغزالي في إحيائه « وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ، ويهدي بها من يشاء . فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه ، استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته ، واهتدى به . ومن نظر فيها قاصراً للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض ، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب ، فقد شقى وارتد ؛ فتعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن يحنينا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وجوده ورحمته » .

أرأيت إذاً كيف يعالج الصوفي الفلسفة ؟ . وفي التصوف علم نفس كذلك . يقول الإمام السهروردي في كتابه عوارف المعارف « وعلم النفس ومعرفتها من أعز علوم القوم - يعني الصوفية - وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس » . وبالأحرى في التصوف كل ما يبيغيه طلاب العلم الطامحون . ولكن يصرفهم عنه جهل به ، أو تناس لقدره ، وعدم معرفة ماله من فضل . وإن في دراسة أئمة الصوفية الأعلام ، كالغزالي وأضرابه ، لما ينفع آلاف المرات أكثر من دراسة الفلاسفة الآخرين

« وإن كنا عن دراسهم لغافلين » فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

نعم ! أفهم أن نقرأ للفلاسفة ، لا لنسلم بكل ما يقولونه ، ولا لنرفض كل ما يبدونه ؛ بل على تلك الطريقة التي بينها الغزالي ، والتي سترونها في فصل الغزالي والفلسفة . فمن استطاع أن يدرس الفلسفة على تلك الطريقة التي بيّنها الإمام ، فليقبل أو فليدع إن شاء لنفسه السلامة . فأنا لا أدعو إلى هجر الفلسفة في ذاتها - لا الفلسفة بمعناها القديم ولا بمعناها الحديث - بل أزجر عنها صنفاً معيناً من الناس . أما أولئك الذين يقرءون الفلسفة كما قرأها الغزالي - على ما استراه في منقذه - وكما كان يقرؤها السيد جمال الدين الأفغاني ، فيلسوف الشرق وحكيم الإسلام ، منذ زمن ليس ليس ببعيد ، إذ كان بها من المولعين ؛ فقراءة الفلسفة لا تخلو في هذه الحال من فائدة لدى أمثال هؤلاء الأعلام . فإنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛ إذ في الفلسفة الغث والسمين . فمن قدر على التفرقة بينهما استفاد ، ومن خلط بينهما هلك . وقليل أولئك الذين يستطيعون هذه التفرقة ؛ فإن أكثر الخلق ،

كما يقول الغزالي . لا يعرفون قدر أنفسهم ، ويحسنون الظن بها ، فتراهم يدعون « الحذاقة والبراعة وكمال العقل في تمييز الحق عن الباطل والهدى عن الضلال » . لذلك وسدّاً لباب الذريعة كما يقول الأصوليون ، أحسن الغزالي صنعا حين صاح صيحته التي تهدي للتي هي أقوم « يجب حسم الخلاف في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال ما أمكن » . والخطاب غير موجه هنا للأفغاني وأمثاله طبعاً ، بل لأمثال هذا الطالب المسكين الذي عرفت حديثه !

فلينظر كل في نفسه بعين بصيرته ، ويرى أي باب من أبواب النفس فتح ؛ أهو باب النفس المطمئنة أم هو باب النفس اللوامة ، أم هو باب النفس الأمارة بالسوء ؟

وقد بينا مفاتيح هذه الأبواب المختلفة « فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » .

تبقى بعد ذلك كلمة أخيرة وجيزة ، عن كتاب الغزالي الخالدة « المنقذ من الضلال » وهو موضوع كتابنا :

ألف الغزالي « منقذه » وقد أربت سنه على
الخمسين ، وقبل انطفاء نور حياته بقليل . وفي ذلك
الكتاب سجل الغزالي اعترافاته التحليلية وروى قصة
حياته الفكرية والروحية . وسترى الظروف التي دفعته
إلى ذلك كما رواها بنفسه .

سيروى لنا الإمام قصة شائقة ، ترى فيها ذلك
الإمام الجليل ، قد أتى عليه حين من الدهر وقف
فيه بين عاملين يتجاذبان : شك ، ورجاء . إنها فترة
الحيرة في حياة ذلك القطب الجليل . وسنرى كيف
أخذ الله بيده منها . لقد وجدته ضالاً فهدى ، فإذا به
قد خرج من الظلمات إلى النور ، يدعو إلى سبيل
ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . وسيكون ذلك درساً ،
أبلغ به من درس !

وسنرى كيف عشق الغزالي الحقيقة . وكيف
طلبها ؟

وسنرى ما كونه الغزالي لنفسه من نظرية في المعرفة
وسنرى كيف رفض الغزالي ابتداء جميع أصناف
العلوم . لقد كان مراده العلم اليقيني ، فراح يبحث
عنه أين ؟

لدى علماء الكلام ، ولدى الفلاسفة ، ولدى
التعليمية . وأخيراً لدى أهل التصوف .
وسنرى كيف درس الغزالي هذه الفرق ، وكيف
نقدها ، وأخيراً وصل إلى ما كان ينشده . لدى من ؟
- عند أهل التصوف . ولذاك حديث ممتع . ليت
عشاق الحقيقة الخالدة وطلاب العلم ، يستمعونه .
فيتبعوا أحسنه . فما كان حديثاً يفترى ، بل صدق
لما رده قلب في الله ، رأى فحدث بآيات ربه الكبرى
وما كذب الفؤاد ما رأى .

إنها قصة نفس عظيمة ، صاحبها حجة من
حجج الإسلام البالغة ، وقد خطها قلم صاحبها
نفسه ، بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من علو تعمق ،
وانتشار صيت وجهه ، ودرجة في الدين والعلم عظيمة
وما كمثل الرجل ذي الشأن ، إن كتب تاريخه بيده ؛
وصدق فيما يحدث به . إنه لآخذ ولا شك بمجامع
القلوب ، وكل واجد فيما يقوله درساً . فما بالك إذا
كان القاص هنا ، هو حجة الإسلام الغزالي ؟ إن
قلمه هنا فيما كتب ، هو القلم الذي يحل به القسم ،
وهو الذي عناه المولى سبحانه إذ يقول « ن . والقلم

وما يسطرون» . إنه القسم بالقلم الصادق الذى «يهدى
لتي هي أقوم» .

ولهذا الكتاب الجليل ، أهمية عظمى لدى
المستشرقين الذين يهتمون بالغزالي ويعنون بدراسة
التصوف ، فقد أولاه أكثرهم عناية خاصة به .
نذكر منهم :

كاراديفو ، نيكلسون ، جولد تسيهر ، براون ،
شمولدر ، ماسينيون ، دى مينار ، مكدونالد ،
بروكلمان ، آسين بلاسيوس ، برانتل ، دى بور ،
ماكس هورتن ، أوبرمان ، ونالينو ، وفنسك الخ.
ويأخذنا عند ذلك الأسف ، إذ نرى كيف يهتم
المستشرقون بذلك السفر القيم ، ولانوليه نحن من
اهتمامنا ، ما كان حرياً بنا أن نوليه إياه ، لولا غفلة
عن أقدار الرجال ، منى بها الشرق ، منذ أمد بعيد .
ولو كان الأمر بيدى ، لأنشأت كرسيًا فى الجامعة
خاصاً بالإمام الغزالي ، وهذا أقل ما كان يجب فعله ،
لو عرفنا للإنصاف معنى ، نحو هذا الإمام الجليل ؛
ذلك الذى تقرر اسمه كلما ذكرناه . بحجة الإسلام ،
ولا يكون لحجة الإسلام فى نظرنا من قيمة ، ما يجعلنا

ننشىء له كرسيًا واحدًا فى الجامعة مقصوراً عليه من
بين كراسى عدة لمن هم أقل منه شأنًا . إن الدين
عند الله الإسلام ، وهو فى الدستور المصرى دين
الدولة الرسمى ، ولكن «حجته» أوهى شأنًا لدى
الجامعة من أن ينشأ لصاحبها كرسي ، يسع علم صاحبه
لو جلس عليه ، علم الجامعة ومن فيها . وليس هذا
تهوينا لشأن الجامعة وأساتذة فيها أجلاء ؛ بل تعظيم
لشأن الغزالي ، بما هو له أهل ، وما هو فيه حق ،
وليته يطاع لقصير أمر !

وللغزالي حوالى خمسة وثلاثين ومائة مؤلف ،
طبع بعضها والبعض الآخر لم يطبع بعد . فمتى يجرى
ذلك اليوم الذى نرى فيه هذه الأسفار الجليلة قد تم
طبعتها وأصبحت متداولة بين الناس ، هدى ورحمة
لقوم يؤمنون ؟ فإذا عرفنا عدد مؤلفات الغزالي من
حيث الكمية ، وقيمتها من حيث الكيف ، لم يستغرب
قولى حين دعوت إلى إنشاء كرسي خاص به فى
الجامعة . وسيكون الذين يلجون هذا القسم ، هم
تلاميذ الغزالي ، الذين يكرسون حياتهم لإحياء عهده
وسيصبحون هم نبراس الهدى ، وسينشرون الرسالة

الروحانية في القرن العشرين - إن تم هذا في ذلك القرن -
وسيستجيب العالم لندائهم بعد ما ظلم نفسه حين أحيا
رسالة المادة ، ونسى رسالة الروح !

وآنثذ تخرج رسالة الهدى من الشرق ، كما
كما خرجت من قديم ، مؤذنة ببزوغ فجر عهد جديد ،
يعم فيه التأخي والسلام . إنه ذلك الحلم الذي طالما
نشده المصلحون !

والعالم لن يسعد يوماً برسالة المادة ، فتلك إن
سارت به خطوة إلى الأمام ، فكى ترجع به إلى الوراء
خطوات . فالمدينة كما يفهمها الآن قوم ، هى تعمير ،
فاختراع ، فتدمير . أما رسالة الروح ، فبشرى للعالم
إن هى سادت . ورسالة الروح إنما توجد فى جسم
الإسلام ، ومكانها قلبه ، وشغاف ذلك القلب هو
التصوف . فمنه نشده للروح الحياة ، لدى أولئك
السابقين الأولين : الغزالي وأضرابه . فلو استطعنا
أن نجعل الجامعة تخرج جيلاً من تلاميذ الغزالي
الروحانيين ومريديه المخلصين ، ثم انتشر هؤلاء
مبشرين ومنذرين ، وداعين إلى الله والإسلام
بحكمة ، إذأ لاشتعلت روح الإسلام العالية فى الشرق

من جديد ، وسرى ضوؤها منه إلى الغرب ، فتم
نور الله ، وصارت الزيتونة لاشرقية ولا غربية ،
وتناسى البشر ما يسمونه «الجنسية» ، وأصبح لا جنسية
لإنسان إلا فى دينه ، وهو عند الله الإسلام . والله
الذى جاء بدين الحق ليظهره على الدين كله ، سينصره
كما وعده ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، أو
سخر المنكرون .

سيقراً هذا قوم ويتساءلون : أشاعر هذا
بكل واد ؟ أم خيال التصوف هذا ؟

- بل إيمان بالله ورسالة ذلك الدين القيم ،
وتصديق لنبه ومبلغ رسالته ، القائل : سيصلح حال
آخر هذه الأمة ، بما صلح به أولها . وهل غير رسالة
الروح حين « نزل به الروح الأمين . على قلبك
لتكون من المنذرين » . أصلح حال أول هذه الأمة
يا نبى الله ؟ لقد أيقظت أرواح العرب فاستجابت
لك ، وفعلت - كما روى لنا التاريخ - عجباً ... !
إن الفتوحات الإسلامية الرائعة ، حين كانت تنتصر
القلة الصابرة ، على الكثرة الشجاعة . لتهيب بنا
صائحة بمنطق الأرواح : لقد كان ذلك فعلى إذ اشترانى

الله من أصحابي بأن لهم الجنة !

ولكن متى هذا اليوم الذي تستيقظ فيه الأرواح من سباتها وتفيق من غفلتها ؟

إنه اليوم الذي يعرف فيه المسلمون كيف يعظمون شأن التصوف وما فيه من معنى يدركون . وهو اليوم الذي يجلسون فيه للغزالي خشعاً ينصتون « اعلموا » (١) أحسن الله تعالى إرشادكم ، وألان للحق قيادكم ... الخ » إلى آخر ما يعطيه الإمام من دروس بينات . ستتتعش الروح الإسلامية يوماً ، يرونها بعيداً ، ونراه قريباً ، بل سيسخر قوم من قولي هذا ، ويظنون بي الظنون . فأنت إن حدثت اليوم بلغة من يؤمن برسالة الروح ونهضتها ، وأن للروح يوماً آتياً لاريب فيه ، تسود فيه على المادة « فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريباً » .

إن الحديث ذو شجون ، وإن المعاني كالماء إن سال لا يقف ، فحسبي هذا فقد دفعني سياق الحديث من موضوع لآخر ، ولأقل ما قاله الغزالي في حالة

تمائل حالي « (١) ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصده ، فقد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده » .

عسى أن يكون الله قد وفقني ، لأن أعرض منقذ أستاذي الغزالي ذلك العرض الذي ستجده إن شاء الله - وقد استوفيت المنقذ كله في كتابي - وأن أعلق عليه وأشرحه ، بالقدر الذي استطعت أن أخرج به من دراستي للإمام الغزالي ، من كتبه القيمة ، وماذقت في صحبته الروحية ، حتى تراني قد جعلت الفصول الثلاثة الأخيرة من الكتاب على هيئة حوار بيني ، وبين أستاذي الغزالي ، أنا أسأله وهو يجيب . ولو كان الغزالي حياً بجسمه ، كما هو حي بروحه ، لما أجابني بأكثر من هذا ؛ إذ كنت آخذ أجوبته من نفس كلامه في المنقذ فجاءت أسئلتى كشرح وتركيز لما أحب توجيه النظر إليه ، في جواب الغزالي عن سؤالي .

لقد أقدمت على ذلك ، وأنا أكتب على استحياء . فمثلي حين يلقي بضوء من شرحه على آيات الغزالي البينات ، مثله كمن يتقدم بنور الشمعة في وضوح

(١) أحياء علوم الدين

النهار ؛ أو كممثل القطرة حين تنزل البحر ، فيأخذها
هو ولا تأخذ منه هي . حسبي ذلك ، أن أوقد شمعتي
من نور الغزالي ، وأن تكون قطرتي في بحرهِ ،
منه وإليه

سلام على الغزالي في الدعاة الخالدين حيا وميتا .
والحمد لله رب العالمين .

أبو بكر أبو بكر عبد الرازق

٩ أبريل سنة ١٩٤٧

الفصل الأول

لماذا ألف الغزالي منقذه ؟

« أما بعد ، فقد سألتني أيها الأخ في الدين ... »
تلك هي العبارة التي ابتدأ بها الغزالي - رحمه
الله - اعترافاته في كتابه الخالد « المنقذ من الضلال » .
فماذا سألهُ أخوه في الدين ؟

« أن يثبت إليه غاية العلوم وأسرارها » .

« وغائلة المذاهب وأغوارها » .

« وأحكى لك ما قاسيته في استخلاص الحق من
بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق » .
« وما استجرات عليه من الارتفاع عن حضيض
التقليد إلى يفاع الاستبصار » .

« وما استفدته أولا من علم الكلام ... »

« وما احتويته ثانيا من طرق أهل التعليم القاصرين
لدرك الحق على تقليد الإمام » .

« وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف .
« وما ارتضيته أخيراً من طرق التصوف .
« وما انحل لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل
الخلق من لباب الحق » .
« وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة
الطالبة » .

« وما دعاني إلى معاودتي بنيسابور بعد طول
هذه المدة » .

بذلك يتضح لنا لماذا ألف الغزالي كتابه « المنقذ »
رداً على ما سأله إياه أخوه في الدين ، فجاء المنقذ
تبياناً وتفصيلاً لكل ما أوردناه بنصه .

فالعزالي يحدثنا بأن أخاه في الدين يسأله عن
أشياء ، فيبتدر لإجابته ، لأنه عرف فيه صدق الرغبة
« فابتدرت لإجابتك إلى مطالبك ، بعد الوقوف على
صدق رغبتك » .

ولكن ثم من يشك في ذلك السبب الذي أبداه
العزالي . فالدكتور عبد الدايم أبو العطا البقري يقف
هنا وقفة المتشكك ، ولا يطمئن لما قاله حجة الإسلام
عن نفسه ! فيقول في كتابه « اعترافات الغزالي » مانصه :

« وسواء (١) أسأله حقيقة أخ اه في الدين حكاية
ما قاساه في استخلاص الحق ... أم افترض هو أن
هناك سائلاً قد سأل هذا السؤال ، فهذا فضلاً عن أنه
عرض للفكر التي يحتويها الكتاب مرتبة كترتيب
الكتاب نفسه ، فهو على كل حال يدل على أن تطوره
الفكري وسيره العلمي ، فيه بعض الغموض الذي
يحتاج إلى شيء من التصويب والإيضاح ... والواقع
أن هذه الحادثة ، حادثة رجوعه إلى التدريس بنيسابور
- وهي آخر الحوادث التي سجلها في المنقذ - كانت
هي السبب المباشر لكتابة المنقذ من الضلال ، والموصل
إلى ذى العزة والجلال » .

لست أدري كيف جعل الأستاذ البقري حادثة
رجوع الغزالي للتدريس بنيسابور هي علة تأليف
المنقذ ؟ ! فهو لم يكتف بأن يجعل ذلك الأخ في الدين
محض افتراض أتى به الغزالي ، بل أبى إلا أن يجعل
العزالي مغرضاً في تأريخ نفسه - أي غير مخلص - !
وهذا شطط كبير وتجن على ذلك العالم الفذ ، حجة

الإسلام . فهو ليس في حاجة إلى ذلك الافتراض ليؤرخ نفسه ، فقرأه يقول : « بعد الوقوف على صدق رغبتك » ولا يكون هو صادقاً مع نفسه فيما يحدث به ، وكان مستطيعاً الوصول إلى غرضه دون ذلك الافتراض الوهمي الذي لا يكسبه شيئاً ، بل يجعله غير صادق مع نفسه في استهلال اعترافاته !

أما عن قول الدكتور البقرى بأن السؤال الذي يجيب عنه الغزالي عبارة عن « عرض للفكر التي يحتويها الكتاب مرتبة كترتيب الكتاب نفسه » أي أن ذلك مما يقوى الظن بأن هذا السائل وهمي ، فالعكس هو الصحيح ؛ إذ الغزالي لم يؤلف كتابه ، ثم جعل هذا السؤال الوهمي تبويبا وعرضا لفكر الكتاب - وما كان أغناه عن ذلك التحايل بأن يلجأ إلى الفهرست لو أراد - ! بل رتب كتابه وقسمه هذا التقسيم وفقاً للسؤال الذي سأل به إياه أخوه في الدين . فالكتاب إنما سار على نقط السؤال حتى استوفاه ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وليس السؤال هو الذي أحصى ما في الكتاب وجاء كما يقول الأستاذ ، عرضاً للفكر التي يحتويها الكتاب مرتبة كترتيب الكتاب نفسه !

أما عن جعل رجوع الغزالي للتدريس بنيسابور ، هو وحده السبب الرئيسي لتأليف المنقذ ، فهو قول لا دليل عليه . تأبى هذا الرأي سيرة الإمام الفذ ، وتأباه أيضاً حوادث المنقذ ذاتها كما سيأتى .

وسنضرب صفحاً عن بقية الآراء البعيدة عن الواقع ، التي أدلى بها الأستاذ البقرى في كتابه ، فهي لم تنل من الغزالي شيئاً .

كناطح صخرة يوماً ليوهنها

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

نسكت عن الرد عنها - وما كان أيسره لو أردنا ، فإن كل من درس الغزالي وفهمه يعرف قيمة الآراء التي ذكرها الأستاذ البقرى في الغزالي ومقدار صحتها إن قدر له الاطلاع على هاته الآراء - وذلك عملاً بنصيحة أحمد بن حنبل في البدعة . فقد أنكر ابن حنبل على الحارث المحاسبي تصنيفه في الرد على المعتزلة ؛ فدافع الحارث عن رأيه ، بأن الرد على البدعة فرض . فأجابه أحمد : نعم ولكن حكيمة شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها ، فكيف تأمن أن يطالع هذه الشبهة من تعلق بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ؛

أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ! ؟
وقد علق الغزالي على هذه المناظرة فقال: إن ما ذكره
أحمد حق، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر، أما
إذا انتشرت فالجواب عنها واجب.

فنحن نعامل الدكتور البقرى، إذ ندافع عن
الغزالي، بما ذكره أحمد، وبما قاله الغزالي في تعليقه؛
إذ نعتبر أن بدعة الدكتور البقرى في الغزالي لم تنتشر
ولم تشتهر! وما دعانا إلى الخروج عن القاعدة التي
قررناها، إذ رددنا عليه في المسألة التي دفعنا فيها شبهة
عدم الإخلاص عن الغزالي، إلا أن هذه المسألة قد
وردت في استفتاح المنفذ، بصدد شبهة حسب صاحبها
أنه قد نال بها المنفذ في لبه، وقد رأيت وضعها الصحيح
فيما بيناه لك.

إنا لنأسف تماماً أن يكون مقدار فهم المتعلمين
المثقفين للغزالي هو هذا!

وما دعانا إلى هذا الاستطراد، ولا أقول الدفاع،
فليس الغزالي في حاجة إلى من يدافع عنه، حسب الله
وكتبه تنطق بحقيقته، إلا حرصنا على سيرة إمام
عظيم كهذا، أن تتناول بمثل هذا التجنى، ولا دليل

لمن تجنى سوى رأيه - وقد عرفت مكانه من الصواب -
وإن لم يؤيد هذا الرأي برهان ولا واقع!

يقول عبد الغافر بن اسماعيل الفارسي خطيب
نيسابور محدثاً عن الغزالي:

«وسلك طريق الزهد، وترك الحشمة، وطرح
ما نال من الدرجة، وأخذ في الاشتغال بأسباب
التقوى وزاد الآخرة، وقصد بيت الله الحرام،
ثم دخل الشام وأقام في تلك البلاد قريباً من عشر
سنين، يطوف ويزور المشاهد؛ وأخذ في التصانيف
المشهورة التي لم يسبق إليها؛ مثل (إحياء علوم الدين)
والكتب المختصرة منها؛ مثل (الأربعين) وغيرها
من الرسائل التي من تأملها علم محل الرجل من فنون
العلم. وأخذ في مجاهدة النفس وتغيير الأخلاق،
وتحسين الشئائل، وتهذيب المعاش، والتزوي بزى
الصالحين، وقصر الأمل، ووقف الأوقات على
هداية الخلق، ودعائهم إلى ما يعينهم من أمر الآخرة،
وتبغيض الدنيا، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية،
والانقياد لكل من يتوسم فيه أو يشتم منه رائحة

المعرفة ، أو التيقظ بشيء من أنوار المشاهدة ، حتى
مرن على ذلك ولان . ثم عاد إلى وطنه لازماً بيته
مشتغلاً بالتفكير ، ملازماً للوقت ، مقصوداً وذخراً
لكل من يقصده ويدخل عليه ، إلى أن أتى على ذلك
مدة ، وظهرت التصانيف وفشت الكتب ، ولم تبد
في أيامه مناقضة لما كان فيه ، ولا اعتراض على مآثره ،
حتى انتهت نوبة الوزارة إلى فخر الملك جمال الشهداء
تغمده الله برحمته ، وتزينت خراسان بحشمته ودولته ،
وقد سمع وتحقق بمكان الغزالي ودرجته ، وكمال
فضله وحالته ، وصفاء عقيدته ، ونقاء سريره ،
فتبرك به ، وحضره وسمع كلامه ، فاستدعى منه
أن يلقي أنفاسه وفوائده عقيمة ، لا استفادة منها ،
ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح ،
وتشدد في الاقتراح ، إلى أن أجاب إلى الخروج ،
وحمل إلى نيسابور ، وأشير عليه بالتدريس في المدرسة
الميمونة النظامية . فلم يجد بداً من الإذعان للولاية ،
ونوى باظهار ما اشتغل به إفادة القاصدين دون
الرجوع إلى ما انخلع عليه . وكم قرع عصاه بالخلاف
والوقوع فيه ، والسعاية به ، والتشنيع عليه . أقول

لعل الدكتور البقرى يحيي محاسن هؤلاء ! « فما تأثر
ولا اشتغل بجواب الطاعنين . ولقد زرتة مراراً... الخ »
إلى أن يقول : « وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكليف ،
فتحقت بعد التنقير أن الأمر على خلاف المظنون . الخ »
ثم يقول :

« وحكى لنا - أي الغزالي - عن كيفية أحواله ،
من ابتداء مآظهر له من سلوك طريق التأله ، وغلبة
الحال عليه بعد تبخره في العلوم ، والاستعداد الذي
خصه الله به في تحصيل أنواع المعارف ، وتمكنه من
البحث والنظر حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم الغربية
وتفكر في العاقبة ، وما يجدى وينفع في الآخرة ،
فاقتدى بصحبة الفارمدى واستفتح منه الطريقة .
وامتثل مما كان يشير به عليه . من القيام بوظائف
العبادات ، والإمعان في النوافل . واستدامة الأذكار
والجد والاجتهاد ، إلى أن جاز تلك العقبة ، وتكلف
تلك المشاق ، وما تحصل على ما كان يطلبه من
مقصوده .

« ثم حكى أنه راجع العلوم وخاض في الفنون ،

وعاود الاجتهاد في كتب العلوم الدقيقة ، حتى
انفتحت له أبوابها ، وبقي مدة في الوقائع وتكافؤ
الأدلة وأطراف المسائل . ثم حكى أنه فتح عليه باب
من الخوف بحيث شغله عن كل شيء ، وحمله على
الإعراض عما سواه ، حتى سهل ذلك . وهكذا وهكذا
إلى أن ارتاض كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق
وصار ما كنا نظن به ناموساً وتخلفاً ، طبعاً وتحققاً ،
وأن ذلك أثر السعادة المقدرة له من الله تعالى .

« ثم سأله عن كيفية رغبته في الخروج من بيته ،
والرجوع إلى مادي إليه من أمر نيسابور ؟ فقال
معتذراً عنه : ما كنت أجوز في أن أقف عن الدعوة
ومنفعة الطالبين بالإفادة ، وقد حق على أن أبوح بالحق
وأنطق به ، وأدعو إليه ، وكان صادقاً في ذلك -
أسمع الدكتور البقري ؛ فهذه شهادة من خطيب
نيسابور؟ - ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته فاتخذ في جواره
مدرسة لطلبة العلم ، وخانقاه للصوفية .

« وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين ،
من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ! والقعود

للتدريس ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظات من معه
عن فائدة » انتهى .

وقد آثرنا أن ننقل لك كلمة خطيب نيسابور هذه
بجملتها ، لأن فيها إشارات كثيرة إلى حوادث سترها
فيما نقلناه لك عن المنقذ ، ولأن شهادة خطيب
نيسابور ، وهي البلدة التي كان الغزالي ينشر فيها
علمه على ما ستره تفصيلاً ، هي الشهادة التي يركن
إليها ، عملاً بقوله تعالى « وشهد شاهد من أهلها » .
ولكن الدكتور البقري ربما يرفض شهادة خطيب
نيسابور أيضاً ! وإن كان « مكدونالد » في كتابه عن
الغزالي (تاريخ حياة الغزالي) تراه كثيراً ما يستشهد
بأقوال عبد الغافر ابن اسماعيل الفارسي ، خطيب
نيسابور ، لأنه يعرف - كما نعرف جميعاً - قيمة
ما يذكره رجل كهذا ، عاصر الغزالي ، واختلف
إليه كثيراً ، ولم يعرف عن خطيب نيسابور ، شهادة
الزور !

لذلك ولما كان لنيسابور في حياة الغزالي من
حديث ، نقلنا لك كلمة خطيبها في الغزالي . دع عنك
ما ذكره فيه أمثال الذهبي ، وابن السبكي ،

وقطب الدين محمد بن الأردبيلي ، والأستاذ عبد الوهاب الشعرائي ، وابن الجوزي ، وإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني النيسابوري ، والزبيدي ، وغير هؤلاء كثيرون ، يعرفهم الذين يعنون بأمر الغزالي .
فلعل إذأً ، أن يكون في نقلنا هذه الكلمة الصادقة من شاهد عيان كما يقولون ، ما يقنع الدكتور البقري ، ومن أراد أن ينهج نهجه ، ببعد الشقة بينه وبين الإمام الغزالي ، وأن ليس الغزالي هو الذي يقال فيه ، ما قاله في كتابه السابق الذكر :

«أما قوله - أي الإمام الغزالي - : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله » فلا ندري أكان قوله حقاً وصدقاً ؟ أو الحق والصدق أنه طلب العلم لغير الله ، وظل ينشره ويطلبه لغير الله كما بدأه ؟ » انتهى .

فالذي يعرف الغزالي من كتبه ، إن لم يعرفه من أقوال معاصريه وغير معاصريه أيضاً ، ويعرف كيف تنازل عن الجاه والسلطان والمال فراراً بدينه ، ورغبة في سلامة أخراه ، لا يبقى متردداً في الحكم على

الغزالي - كما فعل الدكتور البقري - أكان يطلب العلم لله أم لغير الله !!

ولا يتردد كذلك في تصديق الغزالي ، فيما ذكره عن نفسه ، في سبب تأليفه « المنقذ من الضلال » ، ولا يذهب مع الأستاذ البقري في فروض لها ما يدحضها من الواقع . فما كان الغزالي يتاجر بعلمه ودينه حين ألف منقذه ، بل حسبه ما ذكره بنفسه « إني وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ؛ فإن الرجوع عود إلى ما كان . وكنت في ذلك الزمان ، أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملی ، وكان ذلك قصدي ونيتي .

«وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه . هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني ، وأنا أبغى أن أصلح نفسي وغيري ؛ ولست أدري ، أصل إلى مرادى أم أخترم دون غرضي ؟ ولكني أومن لإيمان يقين ومشاهدة أن « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » وأني لم أتحرك ، لكنه حركني ، وأني لم أعمل لكنه استعملني . فأسأله أن يصلحني

أولاً ، ثم يصلح بي ويهديني ثم يهدي بي ، وأن يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، ويرزقني اجتنابه .

إذاً كان الغزالي « مخلصاً » حين ألف منقذه ، و« صادقاً » حين حدثنا بالسبب .

وعلى هذا الأساس في فهمنا للغزالي ، نتمشى معه في بقية اعترافاته ؛ « ذكرى وما كنا ظالمين » .

الفصل الثاني

الغزالي يطلب العلم اليقيني

« وقلت مستعينا بالله ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه وملتجئاً إليه ... » .

بذلك الاستفتاح القوي الصادق ، يبدأ الغزالي درسه « ... اعلّموا أحسن الله تعالى إرشادكم ، وألأن للحق قيادكم ... الخ » .

هنا يلتقي الغزالي نظراته الفاحصة على هذا الكون العجيب الحافل ، ويرى الناس مختلفين أدياناً ومللاً ، حتى الأمة الواحدة ، ذهبت فيها الفرق مذاهب .

تباينت الطرق ، والبحر عميق « غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون » وقد زعم كل فريق أنه على شيء و « كل حزب بما لديهم فرحون » . لقد تنبأ سيد المرسلين لأُمته بهذا الاختلاف يوماً . « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة »

عرف الغزالي هذا وسلم بأنه قد «كان ما وعد أن يكون». فهل يرضى لنفسه إحدى الفرق الثلاث والسبعين ، عليها تكون الناجية وما يديره إن اختار؟ هو لم يتخذ عند الله عهداً ، وهو لا يقول على الله ما لا يعلم .

إنه منذ عنفوان شبابه ، منذ راهق البلوغ ، ولما تبلغ العشرين سنه حتى أصبح وقد أوفى على الخمسين - وهي سنه إذ كتب منقذه تقريباً - يتلمس الحقيقة ، أنسا في نفسه رشداً ، فهو يقتحم «لجة هذا البحر العميق» ويخوض «غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور» ولكن الطريق غير معبد ، فيه ظلام ، وفيه مشكلات . ولكن من راض نفسه على طلب الحقيقة ، فليس له إلى النكوص من سبيل . فهو يتوغل في كل مظلمة ، ويقتحم كل ورطة ، غير هباب ولا وجل . أمامه الفرق كثرت عدداً ، ولكنه لا ينطوي تحت لواء إحداها ، بل شعاره أن «أتفحص عن عقدة كل فرقة ، وأكتشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع» فهو لا يغادر باطنيا إلا أحب الاطلاع على بطانته ،

ولا ظاهريا إلا أراد العلم بحاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا قصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا اطلع على غاية كلامه وجادله بالتي هي أحسن ، ولا صوفيا إلا وهو في الحصول على سر صفوته من الراغبين ، ولا متعبداً إلا ترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ولا زنديقاً معاطلا إلا تجسس وراءه ليعرف سبب جرأته وزندقته . وهكذا يكشف لنا الغزالي عن صورة نفسه المتعطشة لدرك الحقائق «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري» .

أرأيت هذه النفس العظيمة ؟ !

أكان ذلك التعطش لدرك الحقائق غريزة وفطرة في نفسه العظيمة القوية ، أم تعودا واكتسابا راض النفس عليهما ؟

بل «غريزة وفطرة من الله وضعها في جبتي ، لا باختيارى وحيلى» .

فهو ما رمى إذ رمى ، ولكن الله رمى حتى انحلت عنه رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد

الموروثة، وهو ما زال بعد صبيّاً ، والله يؤتى حكمته من يشاء ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

فذلك القريب عهداً بالصبا ، يأخذ في التأمل ليرى « أن صبيان النصارى لا يكون لهم نشو إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشو لهم إلا على اليهود ، وصبيان المسلمين لا نشو لهم إلا على الإسلام » .

أرأيت هذه النفس الصبية ، العاقلة المفكرة ؟ إنها لا تنصرف إلى ما ينصرف إليه من في مثل سنّ صاحبها ، من هو وعبت ، بل إن مرادها شيء آخر : طلب الحقيقة ! فهو يحدث نفسه « إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ؛ ما هي ؟ » .

إن نفس الغزالي الصبي ، هي عين نفس الغزالي بعد ما كملت وصقلت ، ونضج صاحبها وأصبح يدعى بحجة الإسلام . بذرة صالحة من يوم أن زرعت ، فلم تزدها الحياة إلا كمالاً ، إنا لنعرف قول المصطفى عليه الصلاة والسلام « ليس منا من دعا إلى عصبية » . فالمتسامحون هم المؤمنون حقاً ، وهم أصحاب القلوب الكبيرة ؛ فتعال بنا نلق نظرة على الغزالي

وهو قريب عهد بالصبا ، لنراه قد جعل دستوراً ، التسامح مع الناس ، والبعد عن العصبية ولكأننا به وقد مر عليه صبيان النصارى ، لا يعرف لنفسه فضلاً عليهم ، وإن كان دينه القيم ، وهو عند الله الإسلام ؛ فهو وإياهم سواء . فأولئك إنما وجدوا آباءهم نصارى ، فاقتدى بالآباء أبناء ؛ وهو ألم يجد أباه مسلماً فكان ؟ ثم يمر عليه صبيان اليهود فيهشّ لهم ، إنهم يتبعون آباءهم ؛ لقد هوّدوهم !

ويعر عليه صبيان المجوس ، وتأبى نفسه الفتية الكريمة إلا أن تجد لهم عذراً ، لقد مجّستهم الآباء . ثم يمر عليه صبيان دينه فرحين مستبشرين ، لهم نشوة على الإسلام . ولكن ، ما فضل أولئك على هؤلاء ؟ أيدري أولئك الصبيان أى دين حملوا ، فلهم به على الآخرين خيلاء ؟ أم هكذا وجدوا آباءهم الأولين ؟ ...

هنا تسعف الغزالي نفسه بجواب ، إنه الحديث المروى عن سيد المرسلين « كل مولود يولد على فطرة الإسلام ، فأبواه يهودّ دانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه » . وعندما يتحرك باطنه « إلى طلب حقيقة الفطرة

الأصلية وحقيقة العقائد العارضة ، بتقليد الوالدين
والأستاذين . والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها
تلقيينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات .
إنه علم من نوع آخر إذًا ، ذلك الذى راح
يطلبه الغزالي ؛ فهو يطلب العلم اليقيني .

- وما العلم اليقيني ؟

- « هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا ،
لا يبقى معه ريب ، ولا يقاربه إمكان الغلط والوهم ،
ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ
ينبغي أن يكون مقارنا لليقين مقارنة ، لو تحدى
بإظهار بطلانه مثلا ، من يقلب الحجر ذهابا ، والعصا
ثعبانا ، لم يورث ذلك شكًا وإمكانًا . فإني إذا علمت
أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى قائل :
لا بل الثلاثة أكثر بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا
وقلبها وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه فى معرفتى ،
ولم يحصل الى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ،
فأما الشك فيما علمته فلا » .

ذلك هو العلم اليقيني ، كما عرفه الغزالي وأراد ،
فراح ينشده . إنه ذلك العلم الذى لم يأخذه وراثته عن

والدين ، أو تقليداً عن أحد ؛ إنه ذلك العلم الذى
تبلغ درجة اليقين به ، ما نم عنه المثل الذى ضرب به ،
فلا أحد يقدر على تشكيكه فى معرفته ، وإن قلب
أمامه العصا ثعبانا فلا يكون لذلك من أثر فى نفسه
سوى التعجب من تلك القدرة ، لا الشك فيما قد
علم . هو يريد أن يعرف العلم اليقيني ، فيعرف أهله ،
لا أن يعرفه من أحد بلغت ما بلغت حجته ، أو تناهت
ما تناهت قدرته ؛ فهو إذ يعلم بأن العشرة أكثر من
الثلاثة فلن يتحول عن معرفته تلك ، وإن سحروا عينه ،
واسترهبوه وأتوا بكل سحر عظيم . وذلك هو العلم
الذى ينفع صاحبه . وكما أن الله سبحانه وصف الذين
أمنوا بالله ولم يرتابوا بأنهم هم المؤمنون حقاً لهم
درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ، فكذلك
ذلك النوع من العلم الذى ينشده الغزالي ولا تتبعه
ريبة ، يكون أصحابه ممن يصح وصفهم بأنهم هم
العالون حقاً ، وبقيناً . فكما أن المؤمن لا يرتاب ،
وإن لقي ما لقي من هول وعذاب ، بل يقول ما كان
يقوله بلال رضى الله عنه ، مؤذن الرسول عليه
الصلاة والسلام ، وقريش تحرق ظهره على رمال

الهجرة أحد أحد ، دون أن يرتاب بالله قلبه ، أو تفر عن الإسلام همته ، مع أنه لو تلفظ بكلمة الكفر ، وهو مضطر ، لما آخذه الله بشيء إذ يقول سبحانه «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» ولكنه أثر الحلاك وهو مؤمن قلباً ولساناً ، على العافية مادام فيها تلويث للسانه المجبر ، دون قلبه المطمئن .

أما الريبة ، ولماذا يتركه الله وهو المخلص له ، ليعذب بأيدي من عصاه ، وهو القادر على إنقاذه فإنه سبحانه يقول «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» . وما كان بلال ليرتاب فيسأله ذلك وإن لقي الأمرين ، فهو المؤمن حقاً له عند ربه مغفرة ورزق كريم . ذلك هو الإيمان الذي لا تتبعه ريبة ، والغزالي يريد علماً كهذا ، لا تتبعه ريبة ؛ فكما أن بلالاً إذ آمن بربه ، إيماناً يقينياً ، لا يسأله عما يفعله معه ، ولا يقلل إيمانه بريبة ، فعل مخلوق ، بل إيمانه باق على حاله إن لم يزد ، فكذلك العلم اليقيني الذي لا تتبعه ريبة ، يبقى صاحبه عليه ، وإن قلب له صاحبه وهو يحاوره فيه ، العصا ثعباناً أو الحجر ذهباً ، ليثبت له عكس ما يعتقد . فحسبه تعجباً من قدرة ، لا شكاً فيما يعلم .

أما كل ما لا يعلمه الغزالي ، على ذلك الوجه ، ولا يتيقنه هذا النوع من التيقن «فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقيني» .

وكذلك راح يطلب الغزالي ، علمه اليقيني ، ولكن كيف السبيل ؟

الفصل الثالث

العلم اليقيني وكيف هدى الله الغزالي طريقه

وقف الغزالي حائراً ، يقلب أنظاره في سماء المعرفة ، وكواكب العلوم تترى أمامه ؟ ما يكاد يبرز كوكب منها ، حتى يأفل . إن مراده العلم اليقيني ، وذلك ما يبرز بعد كوكبه . وهناك بعيداً ... رأى كوكبا بازغاً ، ظنه أربه .

عل كوكبه هذا هاديه العلم اليقيني !

سترى ما يكون من شأن « الحسيات . والضروريات » معه . فالغزالي لا يجد ما يصح أن يكون هاديه للعلم اليقيني ، إلا الحسيات والضروريات « فقلت الآن بعد حصول اليأس : لامطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات ، وهي : الحسيات والضروريات » .

وهنا يقبل الغزالي على المحسوسات والضروريات يتأمل فيها كما يقول «بجد بليغ» ؛ ليرى إن كانت ثقته بالمحسوسات ، وأمانه من الغلط في الضروريات تكون «من جنس أمانى الذى كان من قبل في التقليديات. ومن جنس أمانى أكثر الخلق في النظريات أم هو أمان محقق ، لا غدر فيه ، ولا غائلة له ؟» .

وهنا يتساءل الغزالي : هل يمكنه أن يشكك نفسه في المحسوسات ؟

يطول به التشكك ، وأخيراً ، يصل إلى قرار : «لم تسمح نفسى بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً» . ولكن كيف وصل حجة الإسلام إلى قراره هذا ؟ ولم رفضت نفسه تسليم الأمان للمحسوسات ، لذلك عنده سبب . إن حاسة البصر هي أقوى ما في المحسوسات ، فإذا اطمأن الغزالي إليها ، فربما استطاع أن يركن بعض الشيء إلى ما تقوله هذه المحسوسات ، بادئاً بأقوى ما فيها - حاسة البصر - ثم يتمشى بعد ذلك مع باقيها .

أما وقد رفض الأخذ بأقوى ما في المحسوسات - وهي حاسة البصر - فدهى أن يرفض الأخذ بما

عداها ، وما يقل قوة عنها . وعلى ذلك يستبعد الغزالي المحسوسات من نطاق العلم اليقيني .

ولكن لم رفض الغزالي تلك الحاسة القوية - حاسة البصر - حتى لا نراه يسلم لها بشيء ؟ - لأنها «تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنى الحركة» .

«وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار» . ثم تجيء التجربة والمشاهدة ، فتجد الظل بعد ساعة قد تحرك ، وإن كان تحركه تدريجياً ، ذرة فذرة . إذن خدعنا البصر فيما رأى ، وما كان للظل وقوف .

ثم تجيء الأدلة الهندسية ، فتثبت لنا أن الكواكب أكبر من الأرض مقداراً ، إذن : فالنجم يبدو للعيون وهو مصغر

والعيب للطرف لا للنجم في الصغر . إذن ثم حاكمان : حاكم الحس ، وحاكم العقل . وكلاهما يناقض في حكمه الآخر ، فأيهما نصدق ؟ يأتى لنا حاكم الحس بأحكامه ، فيأتى حاكم العقل ويكذبه «ويخوله تكديبا لا سبيل إلى مدافعته» .

... « وقد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً » .

وعلى ذلك فليس من بد أن يحتكم الغزالي إلى العقليات التي هي من الأوليات . إنه يسعى وراء العلم اليقيني ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . يضرب لنا الغزالي أمثلة لتلك بأن « العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً » .

وهنا تنبرى المحسوسات بعد ما هزمت أمام العقليات ، تريد الثأر لنفسها ، فتقول له : « بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثفتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي . فاعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر . إذا تجلى كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه . وعدم تجلى ذلك الإدراك ، لا يدل على استحالة » .

— أيتها الحالة الخفية : ترى ما عساك تكونين ؟
هنا تتوقف نفس الغزالي قليلاً . فلا تجد لما قالته

المحسوسات جواباً ؛ فضرب الشك حواليه نطاقاً ، وأحاط به سرادقه . يتلمس سُدًى منه مهرباً وخلاصاً ؛ لقد أحكم حواليه وبات من شكه في ظلام . وفي السرادق فتحات ثلاث ، فقصده الغزالي الفرجة الأولى وما هو بخارج منها ؛ لقد وقف على بابها حارس قوى من حراس الشك ؛ يمنعه الخروج من سرادق الشك إن أراد .

— أيها الحارس دعني ، هل إلى خروج من سبيل ؟
— بل تبقى هنا ، وإن طال بك المقام ، سأزيدك شكاً حتى تبقى من شكك في ظلام . كيف تمر من الشك وثم « منام » ؟ وإلى الحارس للشك عتيد .
لقد سمعت ما حدثتك به المحسوسات وأزيدك « أما تراك تعتقد في النوم أموراً وتخیل أحوالاً . وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخیلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ! فيم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل ، هو حق بالإضافة إلى حالتك ، لكن يمكن أن تطراً عليك حالة ، تكون نسبها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون

يقظتك نوما بالاضافة اليها ، فإذا أوردت تلك الحالة
تيقنت أن جميع ماتوهمت بعقلك خيالات لا أصل
لها ؟ » .

— صدقت ، وما يدريني ؟ !

وهنا يقصد الغزالي الفتحة الثانية ، فلا يكون
نصيبه معها ، خيراً من نصيبه مع الأولى . إن بيابها
هي الأخرى لحارسا للشك منيعاً .

وقف الغزالي يتأمل ذلك الحارس وقد علق على
حربته المنتضاة — لمن أراد الخروج — علماً نقشت عليه
العبارة الآتية « حالة الصوفية » .

حاول الغزالي أن يظفر بشيء من ذلك الحارس
الذى لا يعيره التفاتا ، ولا يرد عليه حتى بكلمة ،
فلم يستطع ، إنه من القوم الذين :

شغلهم عبادة الرحمن حتى

حسب الناس أن بهم جنونا

وهنا تأتي نفس الغزالي فتقول له : دعه « إنها
حالتهم ؛ إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي
لهم ، أنهم إذا غاصوا في أنفسهم وغابوا عن أحوالهم

وحواسهم ، رأوا أحوالا ، لا توافق هذه المعقولات » .
فينصرف عنه الغزالي آيسا وقد تزايد شكه .

لم تبق أمام الغزالي إلا فتحة واحدة ، فيمم وجهه
شطرها ... إن بياب تلك مثل الأولين حارساً ، إذن
هن فتحات للشك ثلاث ، لا للخلاص منه .

إن بياب الأخيرة حارساً أخطر من السابقين ،
وأشد تشكيكاً للغزالي . إنها فتحة الموت ، وبيابها
يقف حارسه ، سمعه يقول :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس
نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . ولعل الحياة الدنيا نوم
بالإضافة إلى الآخرة . فإذا مات ظهرت له الأشياء
على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك :
« لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك
فبصرك اليوم حديد » .

وهكذا أخذ الغزالي يزداد شكا وحيرة . فقد
شك أولاً في المحسوسات وشككته تلك — كما رأيت —
في المعقولات ، وحدثته بعدم قيام مانع من وجود
حالة « إدراك » خافية علينا الآن ، يكون موقفها
من العقليات موقف العقل من الحسيات ؛ وإذا كان

ذلك الإدراك غير متجل الآن؛ فإن هذا لا يدل على استحالة.

ثم تزيده نفسه شكاً بالأمثلة الثلاثة : المنام ، وحالة الصوفية ، والموت ، على ما بيناه لك ، مع شيء من التصرف .

فلنسمع إذن ما يقوله الغزالي عن نفسه بعد أن وصل إلى هذه الدرجة من الشك .

« فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً ، فلم يتيسر ، إذ لم يمكن دفعه إلا بدليل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية » .

أما عن تلك العلوم الأولية ، فإن الغزالي لا يسلم بها - كما رأيت - وعلى ذلك ما كان له أن ينصب منها دليلاً .

- كم لبث الغزالي في حيرته هذه ؟

« فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين » .

لبث فيهما الغزالي على مذهب السفسطة ، ولكن « بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال » .

ولكن الله سبحانه ما كان ليذر عبداً من عباده

المخلصين ، يضل ويشقى ؛ لقد وجده ضالاً فهدى ، وكان فضل الله عليه عظيماً . فعادت هذه النفس المريضة ، إلى الصحة والاعتدال « ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين » .

ولكن كيف شفاه الله تعالى من ذلك المرض ؟ لكأنى بذلك إنما جاء مصداقاً لقوله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » « ولم يكن كل ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام » .

فعلى أية صورة أتاه اليقين إذن ؟

« بنور قذفه الله تعالى في الصدر » .

إذن جاء علم الغزالي اليقيني عن طريق ذلك النور الإلهي ، « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » ، ولم يجيء عن طريق محسوسات أو عقليات ، بل قذفاً به من الله في صدره .

فما هو ذلك النور ؟

« ذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة » .

وهنا يأخذ الغزالي في الاستدلال على كنه ذلك

النور، من آيات الله حيناً ، ومن أحاديث الرسول عليه السلام حيناً آخر. لقد شرح الله للغزالي صدره، ويسر له أمره ، وجعل له من بعد عسر يسراً وما كان ليتهدي لولا أن هداه الله. فلا المحسوسات أجده ، ولا العقليات نفعت. وفي ذلك يتمثل الغزالي بقوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ». ويقول بأنه لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح هنا ، في هذه الآية « قال : نور يقذفه الله في القلب فيشرح به الصدر . فقليل ، وما علامته ؟ قال : التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ».

وهكذا أرى الله الغزالي آياته في الآفاق وفي نفسه حتى تبين له الحق الذي ينشده : العلم اليقيني ! وهو لن يدعك تعجب من ذلك ، فهو يذكرك بقول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « إن الله تعالى قد خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره » « فمن ذلك النور ينبغى أن يُطلب الكشف ». ولكن أين يوجد ذلك النور ؟ وهل يضيء بين يدي طالبه ، كلما ، وأنى ، أراد ؟

- « ذلك النور ينبجس من الجود الإلهي » .
- ليس دائماً بل « في بعض الأحيان ، ويجب التردد له » .

إن لذلك الكشف تسليماً ، عديد الدرجات ، ومرتقوه طبقات ، وما كان الغزالي لينسى أن « لربكم في أيام دهركم نفحات » كما ورد في الحديث . فأما الذين تعرضوا لها ، فأولئك لهم الدرجات العلى ، فهنيئاً للغزالي هذه النفحة العلوية !

وكذا من يؤمن بالله يهد قلبه ، ومن هدى الله قلبه ، فقد جعل فيه نوره ، ومن كان نور الله في قلبه ، فهو ينظر بنور الله ، وما كذب القواد ما رأى ، أفتأرونه على ما يرى ؟ !

وهكذا « وصل » الغزالي إلى الطريق القويم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، فهو الذي يهديه إلى العلم اليقيني . وهو لم يصل إلى ذلك إلا بعد أن فتح الله عين بصيرته - فقد أراد به خيراً - وقذف نوره في قلبه ، فعرف أن « الكشف » سبيله لما يريد !

وذا ليس بالسهل مطلباً ، فعليه إذن « أن يعمل كمال الجهد في الطلب ، حتى ينتهي إلى طلب

ما لا يطلب . فإن الأوليات ليست مطلوبة فإنها حاضرة ، والحاضر إذا طلب فقد واختفى ، ومن طلب ما لا يطلب : فلايتهم بالتقصير في طلب ما يطلب !

لقد رجع إذن للغزالي إيمانه بالمحسوسات ، والمعقولات ، بذلك النور الذي قذفه الله في قلبه فزال شكه كما رأيت « ورجعت الضروريات العقلية مقبولة : موثوقا بها : على أمن ويقين » .
وسرى بعد : ما يكون من شأنه مع الصوفية ، وما بلغه في « الكشف » من درجة ، بعد أن نذكر ما ذكره في أصناف الطالبين .

الفصل الرابع

ما ذكره الغزالي في أصناف الطالبين

شفي الله الغزالي بعد ما عذبه الشك كما قدرأيت طويلا . فاعطأنت نفسه . وفتح الله عين بصيرته ، مصداقاً لقول سيد البشر ، محمد صلوات الله وسلامه عليه : ما من عبد إلا ولقلبه عينان ، وهما عينان يدرك بهما الغيب ، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً ، فتح عيني قلبه . ليرى ما هو غائب عن بصره .

فأصبح الغزالي يرى بنور الله ، وتلك فراسة المؤمنين . وهنا يقبل على أصناف الطالبين ، حتى تنحصر لديه في فرق أربع .
(المتكلمون) « وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر » .

و(الباطنية) « وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصصون بالاقتباس من الإمام المعصوم » .

و(الفلاسفة) «وهم يذعمون أنهم أهل المنطق والبرهان» .

و(الصوفية) «وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة» .

ولكنه لن يعطى رأياً في إحدى هذه الفرق الأربع حتى يدرس مبادئها ، ويلم بعقائدها ، فإذا أبدى رأيه أبداه عن بينة ، وإذا اقتنع فعن حجة وبرهان ، لا تقليداً واتباعاً .

رأى الغزالي أن «هؤلاء هم السالكون سبيل طلب الحق ، فان شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع» .

وهكذا تظهر بوضوح ، الطريقة العلمية المثلى للغزالي في البحث . فهو يدرس أولاً ويناقش بعد ذلك . إن شعاره في البحث والمقارنة هو الآتي :

«لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم في أصل العلم . ثم يزيد عليه . ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم

يطلع عليه صاحب العلم من غور ، وغائلة ، فاذا ذلك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقا» .

أرأيت هذه الخطة في البحث ؟ فمن ذا الذي يستطيع أن يرمى صاحبها بالتقليد الأعمى . أو بالرأى المغرض الذي يبني على غير أساس ؟

إن شأن الغزالي البجاعة هو ما قاله الحكيم العربي :
وفضلني في القول والشعر أننى

أقول على علم وأعلم ما أعنى

ليس الغزالي ممن يقولون ما لا يفعلون ، فبعد أن كوّن شعاره في البحث ، وانتهى من رسم الخطة ، جاء دور التنفيذ .

«فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق» .

ويحق لك أن تطمئن بعد ذلك ، إلى أن الغزالي ما وصل لرأيه الذي كونه ، والذي نشره للناس عامة في منقذه من الضلال ، إلا بعد أن بحث ودرس ، وبعد أن شرح الله من قبل صدره ، على ما صدر به اعترافاته .

بدأ الغزالي بعلم الكلام ، وثني بطريق الفلسفة ،
وثلاث بتعليمات الباطنية ، وختم بطريق الصوفية .
وسنفرّد فصلاً لكل ، لتعلم رأى الغزالي بوضوح
فنهج سبيله واضح لمن اهتدى .
ولكنها الأهواء عمت فأعمت !

الفصل الخامس

ما ذكره الغزالي في علم الكلام مقصوده وحاصله

« ثم إنى ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته » .
طالع الغزالي كتب المتقدمين المحققين في ذلك
العلم ، ولم يكتف بذلك بل صنف فيه ما أراد .
تري ما عسى أن يكون حكمه على ذلك العلم
بعد أن خبره وتفقه فيه ، ووضع ما وضع فيه من
مؤلفات ؟

إليك حكمه :

« فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف
بمقصودي » .

فما هو مقصود علم الكلام ، وما هو مقصود
الغزالي ؟ ولم يختلف المقصدان ؟
مقصود علم الكلام هو حفظ عقائد أهل السنة

على أهلها ، وذب تشويش أهل البدعة عنها « فقد ألقى الله سبحانه إلى عباده ، على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عقيدة هي الحق على مافيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار » .

وهنا يجيء الشيطان فيلقى في وساوس المبتدعة أموراً تخالف السنة ، فاذا بهم يلهجون بها حتى يشوشوا عقيدة الحق على أهلها ، ولكن الله البصير بالعباد ما كان ليضيع إيمان المؤمنين ، فأوجد برحمته طائفة المتكلمين ، فحرك بقدرته دواعيهم ، فاذا هم لنصرة السنة الماثورة يعملون « بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثه على خلاف السنة الماثورة » . ومن هذا نشأ علم الكلام وأهله ، حيث قامت طائفة منهم مباركة ، مؤيدة من الله سبحانه ، تذب عن السنة ، وتناضل عن العقيدة ، هذه العقيدة « المتلقاة بالقبول من النبوة » فاذا هي تغير كل ما أحدثته البدع من الضلال .

فاذا عرفنا بهذا مقصود علم الكلام ، تساءلنا كيف يختلف مقصود الغزالي عنه ؟ ولكننا نسارع

بالقول : إن الغزالي لا يختلف مقصوده عن مقصود علم الكلام ، بل هو غير كاف به ، إذ يريد الغزالي طريقة لنفسه ، غير ما أرادها المتكلمون .

فالمتكلمون « اعتمدوا على مقدمات تسلموها من خصومهم ، اضطروهم إلى تسلمها ، إما التقليد أو إجماع الأمة أو مجرد القبول من القرآن والأخبار » لذلك يرى الغزالي أن أكثر خوضهم إنما كان في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم « وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً » .

وعلى ذلك ينصرف الغزالي عن علم الكلام ، ويقول « لم يكن الكلام في حق كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً » .

نعم يعرف الغزالي أنه حين نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، مع طول المدة ، نزع المتكلمون إلى البحث عن حقائق الأمور ، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض ، متجاوزين بذلك الذب عن السنة ، وهي مقصودة علم الكلام أصلاً . ولكنهم في هذا الخروج عن مقصود علمهم « لم

يبلغ كلامهم فيه غايته القصوى . فلم يكن فيما ذكروه ، هدى لحائر . ولا إنارة لظلمة ، فيها الخلق يختلفون .

ولكن الغزالي لا يبعد أن يكون قد حصل لطائفة غيره هدى على يد هؤلاء ، لم ينله هو . إذ هو لا يشك « في حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولا مشوبا بالتقليد في بعض الأمور ، التي ليست من الأوليات » .

ولما كان غرض الغزالي - كما يقول - أن يقص حكاية حاله هو لذا لن يتعرض بالانكار على من استشفى بذلك العلم ، أو وجد فيه هدى « فان أدوية الشفاء ، تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به مريض ، ويستضر به آخر » .

وهكذا نفى الغزالي يديه من علم الكلام ، ليجرب لحظة مع الفلسفة .

الفصل السادس

الغزالي والفلسفة

« ثم إنى ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة » .

ورد الغزالي حوض الفلسفة ، مغترفا يسبر لحوضها غورا ، ويعرف لمائها طعما ، متفرسا في « ما يذم منها وما لا يذم ، وما يكفر فيه قائلة وما لا يكفر ، وما يبتدع فيه وما لا يبتدع ، وبيان ماسرقوه من كلام أهل الحق ومزجوه بكلامهم ، لترويج باطلهم في درج ذلك ، وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق ، وكيفية استخلاص صراف الحقائق ، الحق الخالص من الزيف والبهرج ، من جملة كلامهم » .

والغزالي كما رسم لنفسه الطريق ، لن يحكم بفساد علم أو صلاحه حتى يساوى أعلم العلماء في

أصله ، ثم يزيد عليه ، حتى لا يكون ممن يجادل
بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير « فان رد المذهب
قبل فهمه والاطلاع على كنهه . رمى في عمالة » .

هنا يرجع الغزالي البصر إلى علماء الاسلام
فلا يجد « أحدا من علماء الاسلام صرف همته الى
ذلك » . فيرجع البصر كرتين الى المتكلمين ، حيث
اشتغلوا بالرد على الفلاسفة فلا يجد في كتبهم
« إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد ،
لا يظن الاغترار بها بغافل عامي ، فضلا عما يدعى
حقائق العلوم » . هذا أوان الشد فاشتدى زيم .
فليشمر إذن « عن ساق الجبد ، في تحصيل ذلك العلم
من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ
ومعلم » .

ولكن الغزالي مشغول بالتدريس والتصنيف في
العلوم الشرعية ، إذ هو - كما يقول - ممنو بالتدريس
والافادة لثلاثمائة نفر من الطلبة ببغداد . فكيف
يتيسر له لدراسة الفلسفة وقت ؟

حسبه أوقات الفراغ يطلعه الله « بمجرد المطالعة

في هذه الأوقات المختلصة ، على منتهى علومهم ،
في أقل من سنتين » .

ثم قضى الغزالي قريبا من سنة أخرى ، مواظبا
على التفكير في ذلك العلم بعد أن فهمه ، فلبث
يعاوده ، ويردده ، ويتفقد غوائله وأغواره ،
وآنئذ تكشف له ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق
وتخيل - على حد قوله - بشكل ليس فيه الى الشك
من سبيل .

« فاسمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم :
رأى الغزالي الفلاسفة أصنافا ، وخبر علومهم أقساما
« وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم سمة الكفر
والالحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ،
وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم في
البعد عن الحق والقرب منه » .

تقسيم الغزالي للفلاسفة ، ووسم كافتهم بالكفر الفلاسفة عنده أقسام ثلاثة

الصنف الأول : الدهريون ، وهى تلك الطائفة التى جحدت الله منكراً وجوده ، فليس للعالم عندها من صانع مدبر . وهم يزعمون أن العالم وجد بنفسه ، لا صنعة الله الذى أتقن كل شىء ، خاقه ثم هدى . فالحيوان لم يزل « من نطفة ، والنطفة من حيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . وهؤلاء هم الزنادقة » . ما قدروا الله حق قدره .

الصنف الثانى : الطبيعيون ، وهم أولئك الذين طال بحثهم فى الطبيعة ، وقد رأوا الله فى آياته ، فهم يعترفون بوجوده ، ولكن « هؤلاء لكثرة بحثهم فى الطبيعة ، ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوى الحيوان ، فظنوا أن القوة العاقلة فى الانسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم . ثم اذا انعدم فلا يعقل إعادة المعلوم كما زعموا ، فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ،

فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام . وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنوا بالله تعالى وبصفاته » .

الصنف الثالث الالهيون ، ويضرب الغزالي سقراط ، أستاذ أفلاطون ، لهم مثلاً ، ويذكر عن أفلاطون أنه « أستاذ أرسطاطاليس . وأرسطاطاليس هو الذى رتب لهم المنطق : وهذب العلوم ، وخمر لهم ما لم يكن مخمراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم . وهم بجملتهم ردوا على المصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا فى الكشف عن فضائحتهم ما أغنوا به غيرهم » وكفى الله المؤمنين القتال » بتقاتلهم . ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الالهيين رداً لم يقصر فيه ، حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضاً من ردائل كفرهم بقايا لم يوفق للتزوع

منها ، فوجب تكفيره وتكفير متبعيه من متفلسفة
الاسلاميين ، كابن سينا والفارابي وأمثالهم . على
أنه لم يتم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من المتفلسفة
الاسلاميين كقيام هذين الرجلين . وما نقله غيرهما
ليس يخلو عن تخييط وتخليط يتشوش فيه قلب
المطالع حتى لا يفهم ، وما لا يفهم كيف يرد أو
يقبل ؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس
بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر في ثلاثة
أقسام : قسم يجب التكفير به ، وقسم يجب التبديع
به ، وقسم لا يجب إنكاره أصلاً .

وهكذا نرى الغزالي يقسم الفلاسفة ذلك التقسيم
الثلاثي رغم كثرة فرقههم ، واختلاف مذاهبهم
- على حد قوله - فالقسم الأول والثاني عنده من
الغاوين ، بين كافر ومبتدع ؛ أما القسم الثالث منهم
- الإلهيون - فقد رأينا كيف قسم فلسفة أرسطاطاليس
إلى ثلاثة أقسام ، أخذ بواحد منها فقط « لا يجب
إنكاره أصلاً » .

الغزالي وتقسيم علوم الفلاسفة

بعد أن خلص للغزالي أن الفلاسفة أقسام ثلاثة

كما تقدم ، أخذ ينظر في تقسيم علومهم ، ولكن
من ناحية الغرض الذي يطلبه ، وتلك ملاحظة
هامة ، فوجدها أقساماً ستة .

رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ،
وسياسية ، وخرافية .

« أما الرياضية ، فتتعلق بعلم الحساب والهندسة ،
وعلم هيئات العالم ، وليس يتعلق منها شيء بالأمور
الدينية نفيًا وإثباتًا ، بل هي أمور برهانية ، لا سبيل
إلى إنكارها بعد فهمها ومعرفتها »

بيد أن الغزالي يرى أن هذا القسم لم يسلم من
الآفات ، بل تولدت من الرياضيات آفتان : إحداهما :
أن من ينظر فيها ، وتظهر له براهينها ، يأخذ
العجب من هذه الدقائق ، فاذا به قد أحسن بالفلاسفة
ظنه ، واذا بنفسه تحدّثه بعظم علم هؤلاء ، وأن
الصواب ما يفعلونه ، والخطأ ما يتركونه . ولما كان
(أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي ، وينظرون إلى
ذلك بعين الغي) ويا طالما أعمت الفلسفة عن الله
نظر صاحبها ، وجعلت على قلبه غشاوة ، فإن ذلك
المعجب بهم ، المحسن ظنه فيهم ، لهو وشيك أن

يتردى في حفرة ، هم فيها من قبله تردوا . أليسوا هم قائديه ، وهو ظلمهم ، وهل يستقيم الظل والعود أعوج ؟ لربما يسمع ذلك الشخص « من كفرهم وتعطيلهم ، وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض . ويقول : لو كان الدين حقاً ، لما اختلف على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ! فاذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم ، فيستدل على أن الحق ، هو الجحد والإنكار للدين » .

وهنا يورد الغزالي دفعا قويا ، فيقول لذلك الشخص الذي ضل عن الحق تقليداً للفلاسفة على ما بيناه لك : « إن الحاذق في صناعة واحدة ، ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة ؛ فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ؛ بل لكل صناعة أهل ، بلغوا فيها رتبة البلاغة والسبق وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها . وكلام الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الإلهيات تخميني ، لا يعرف ذلك إلا من جربه وخاض فيه »

لكن الغزالي ، مع قوة حجته في دفعه هذا ، لا يطمئن لفهم ذلك الشخص الذي أُلحد تقليداً . فهو يعلم سلفاً موقع كلامه من نفسه : لقد أسمعت لونا ديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى لو كان عقله مستقلاً ، لوقع ذلك الدفع الغزالي منه موقع القبول ، ولكنه « لا يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، وشهوة البطالة ، وحب التكايس ، على أن يصير على تحسين الظن بهم في العلوم كلها » .

لذلك دعا الغزالي الى زجر كل من يخوض في تلك العلوم - من صنف ذلك الرجل - من أجل هاته الآفة . فان من يخوض في هاته العلوم ، يكون عرضة لأن تسرى اليه من فلاسفتها عدواهم وشرهم وشؤمهم « وقل من يخوض في ذلك إلا وينخلع من الدين ، وينجل عن رأسه لحام التقوى » .

أما عن الآفة الثانية فتلك يردّها الغزالي ، الى صديق للإسلام جاهل « ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بانكار كل علم منسوب اليهم ، فأنكر جميع علومهم ، وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكسوف

والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع !» .
فيأتي شخص عرف ذلك بالبرهان القاطع ، فلا يشك
في برهانه ولكن يسيء بالاسلام ظناً ، ويحسب أن
الاسلام قد بنى على الجهل وإنكار البراهين القاطعة
فيتزع عن الدين إلى الفلسفة هروباً بعقله ونجاة
بنفسه « ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن
الاسلام ينصر بانكار هذه العلوم ، فليس في الشرع
تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات ، ولا في هذه
العلوم تعرض للأمور الدينية » .

والواقع أن الاسلام ممثل في القرآن الكريم .
لم يتعرض لأمثال هذه العلوم حين تعرض لها ،
مقررّاً للكثير من النظريات العلمية الكونية ، أو
النواميس الطبيعية ، إلا - كما يقول أستاذنا عبد الوهاب
بك خلاف في كتابه القيم في أصول الفقه (١) في
معرض الاستدلال على وجود الله وقدرته ووحدانيته
« لأن القرآن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ،
لتقرير نظريات علمية أو بيان حقائق فلكية . ولكن
إذا اقتضى الاستدلال على وجود الله وقدرته لفت

(١) ص ٢١

العقول إلى آيات كونية ونواميس طبيعية قرر من
هذه الكونيات ما يقوم برهاناً على وجوده ووحدانيته
ووفرة نعمه على خلقه . وما قرره القرآن من هذه
الآيات والنظريات لم يكن للناس علم بها وقد كشفت
الأيام براهين صحتها ، وأظهر العلم الحديث أدلتها ..
.. الخ » .

بعد أن نفي الغزالي تعرض الشرع لهذه العلوم ،
أو تعرض هذه العلوم للأمور الدينية ، دفع شبهة
قد تجيء من الحديث الشريف : إن الشمس والقمر
آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته
فاذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله وإلى الصلاة .
فنص على أن « ليس في هذا ما يوجب إنكار علم
الحساب المعروف لمسير الشمس والقمر واجتماعهما
أو مقابلتهم على وجه مخصوص » .

وذكر كذلك أن قوله عليه السلام ، بأن الله
إذا تجلى لشيء خضع له بأن « ليست توجد هذه
الزيادة في الصحاح أصلاً » .
وهكذا بين لنا الغزالي حكم فلسفة الرياضيات ،
وما فيها من آفة .

«وأما المنطقيات ، فلا يتعلق شيء منها بالدين
نفياً وإثباتاً بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس
وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها وشروط
الحد الصحيح . وكيفية ترتيبها ، وأن العلم إما تصور
وسبيل معرفته الحد . وإما تصديق وسبيل معرفته
البرهان . وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر . بل هو
من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة .
ولأنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات . وبزيادة
الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات . ومثال كلامهم
فيها قولهم : إذا ثبت أن كل (أ) (ب) لزم أن بعض
(ب) (أ) أي إذا ثبت أن كل إنسان حيوان ،
لزم أن يكون بعض الحيوان إنسان . ويعبرون عن
هذا بأن الموجبة الكلية ، تنعكس موجبة جزئية »
وعند ذلك يتساءل الغزالي :

«وأى تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يحدد
وينكر ؟ وإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل
المنطق إلا سوء الاعتقاد في عقل المنكر بل في دينه
الذي يزعم أنه موقوف على مثل هذا الإنكار ! » .
لم يرض الغزالي كذلك عن هذا النوع من

العلم ، ورأى فيه بالمثل آفة ، ورأى للمناطق نوعاً
من الظلم فته «وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً
يعلم أنها تورث اليقين لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء
إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط .
بل تساهلوا غاية التساهل . وربما ينظر في المنطق
أيضاً من يستحسنه ويراه واضحاً ، فيظن أن ما ينقل
عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين .
ويستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية » .
لذلك ألحق الغزالي هذا القسم بسابقه .

«وأما علم الطبيعيات ، فهو بحث عن أجسام
العالم والسموات وكواكبها ، وما تحتها من الأجسام
المفردة كالماء والهواء والتراب والنار ، ومن الأجسام
المركبة كالحيوان والنبات والمعادن وما تحتها ،
وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها . وذلك
يضاهي بحث الطبيب عن جسم الإنسان وأعضائه
الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزجها » .
ويقول الغزالي : كما أن الدين لا ينكر علم
الطب ، فهو لا ينكر أيضاً ذلك العلم إلا في مسائل
معينة .

وقد أورد الغزالي هذه المسائل في كتابه «تهافت الفلاسفة» فحصرها في «أحكام» (١) النجوم ، الزجر ، الكهانة ، الفراسة ، التعبير الطلسمات ، الحيل ، الكيمياء » .

«وما عداها مما تجب المخالفة فيها . فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها : وأصل جملتها أن يعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى لا تعمل بنفسها بل هي مستعملة من جهة فاطرها ، فالشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته » ذلك ما ذكره الغزالي في علم الطبيعيات .

«وأما الإلهيات . ففيها أكثر أغاليطهم . فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق . ولذلك كثرت الاختلاف بينهم فيه . ولقد قرب أرسطاطاليس مذهبه فيها من مذاهب الاسلاميين على ما نقله الفارابي وابن سينا » .

وهنا يرجع الغزالي ما غلطوا فيه الى عشرين أصلاً « يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر » .

(١) تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي ص ١٢١

ولهذا السبب ألف الغزالي كتابه الخالد «تهافت الفلاسفة» لإبطال مذهب الفلاسفة في هذه المسائل العشرين .

أما عن هذه المسائل الثلاث ، الواجب التكفير فيها ، فالغزالي يراهم فيها قد خالفوا إجماع المسلمين . « وذلك في قولهم : إن الأجساد لا تحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة ، والعقوبات روحانية لاجسمانية » . وهنا يقرهم الغزالي في إثبات الروحانية ، إذ هي كائنة أيضاً ، ولكن هم قد كذبوا في إنكار الجسمانية . وهم إذ ينطقون ذلك ، إنما بالشرعية يكفرون .

«ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكلليات دون الجزئيات . فهذا كفر صريح . والحق أن الله لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

«ومنها قولهم بقدوم العالم وأزليته » وهنا يعلن الغزالي بأن أحداً من المسلمين لم يذهب الى شيء من هذه المسائل .

وقد رأى ، كذلك ، قرب الشقة بينهم وبين

المعتزلة ، إذ نفوا الصفات وقالوا إن الله عالم بالذات لا يعلم زائد عن الذات . ولكن الغزالي يقول بعدم تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

ولقد بين الامام الغزالي - يرحمه الله - في كتابه « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » خطل رأى من يبادر بتكفير كل ما يخالف مذهبه . ونحن نذكر لك شيئا مما قاله في كتابه هذا : « من (١) الناس من يبادر الى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع ، ولا ينبغي أن يبادر أيضا الى كفره في كل مقام بل ينظر فيه ؛ فان كان تأويله في أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها فلا تكفره . وذلك كقول بعض الصوفية : إن المراد بروية الخليل عليه السلام الكوكب والقمر والشمس ، وقوله : هذا ربي ، غير ظاهرها . بل هي جواهر نورانية ملكية ، ونواريتها عقلية لا حسية ، ولها درجات في الكمال ؛ ونسبة ما بينها في التفاوت كنسبة الكوكب والقمر والشمس ، ويستدل عليه بأن الخليل عليه السلام أجل من أن يعتقد في جسم أنه إله ، حتى يحتاج الى أن

(١) فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ص ١٣

يشاهد أقوله ! أفترى أنه لو لم يأفل . أكان يتخذة إلهًا . ولم يعرف استحالة الإلهية من حيث كونه جسما مقدراً ؟ واستدل بأنه كيف يمكن أن يكون أول ما رآه الكوكب ، والشمس هي الأظهر وهي أول ما يرى ؟ واستدل بأن الله تعالى قال أولا : « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض » ثم حكى هذا القول ، فكيف يمكن أن يتوهم ذلك بعد كشف الملكوت له ؟ وهذه دلالات ظنية وليست براهين الخ » .

وإلى هنا ينتهى قول الغزالي في الإلهيات بعد أن بين رأيه فيها وفي أهلها على ما رأيت .

« وأما السياسات » فالغزالي يرى أن جميع كلامهم فيها ، إنما يرجع الى الحكم المصلحية التي تتعلق بالأمور الدنيوية السلطانية ، ومرجعهم فيها أصلا :

كتب الله المنزلة على أنبيائه ، وما أثر عن سلف الأولياء من مآثور الحكم .

لذلك لن يطيل الغزالي وقفته عندها .

« وأما الخليفة ، فجميع كلامهم فيها . يرجع الى

حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها .

وهنا يعلن الغزالي نتيجة خطيرة ، وهي أن الفلاسفة إذ يتكلمون في الحكمة الخلقية ، إنما أخذوا ما أتوا به « من كلام الصوفية ، وهم المتأهلون المثابرون على ذكر الله ، وعلى مخالفة الهوى ، وسلوك الطريق إلى الله تعالى ، بالإعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات أعمالها ، ما صرحوا ، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم ، توسلا بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم » .

وهكذا ترى الغزالي قد سلب الفلاسفة كل فضل يدعونه هنا ، وجعلهم عالة على الصوفية الذين انكشفت لهم خبايا النفس .

والواقع أن الصوفية هم أساتذة علم النفس حقا . أليست النفس وسيلتهم إلى الله ؟ فهم يروضون أنفسهم بشتى الطرق حتى لا تضل ويصبح أمرها فرطا ، ويخالفون هواهم حتى يقهروا شهواتهم ، ويتحكموا هم في أنفسهم ولا يدعوا النفس تحكمهم ،

كما هو الشأن مع غالبية الخلق « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » . والذي يروض نفسه ، لا بد له من معرفتها حق المعرفة أولا ، حتى يعلم ما فيها من خبايا وخفايا ، ومحاسن ومثالب ، فيجاهد النقص ، ويحفظ لها خيرها ، ويكون ذلك مصداقا لقوله تعالى « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . لذلك كان التصوف علما وعملا . والصوفي إذ يعالج نفسه هذا العلاج إنما يضع نفسه على المشرحة ، كما يفعل الطبيب مع الأجساد . فالطبيب إنما يشرح الجسد بعد الحياة ، وهيئات أن يرد له روحا . ولكن الصوفي يشرح نفسه حيا بعين بصيرته ، التي نورها الله ليحفظ لها الحياة ، ويجعل لها روحا قويا يستمد منه الله « والله ولي المتقين » . وفي ذلك يقول الغزالي في « إحيائه » الخالد بصدد كلامه على عجائب قدرة الله سبحانه في خلق عظام الإنسان ، مفرقا بين نظرة الطبيب اليها ونظرة الصوفي^(١) « فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها ، وأهل الضمائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها . فشتان بين النظرين !

(١) أحياء علوم الدين .

لذا ترى الصوفي قد ألم بكل خافية في نفسه ،
ينكشف له بالمجاهدة من أسرار النفس وعيوبها ما لا
يعلمه إلا من سلك ذاك الطريق ! ويعرف من آفات
أعمالها ونزعاتها ما يكون وقاء له في دينه ودنياه ؛ فهو
يعرف الشر على طريقة علي بن أبي طالب ، لتوقيه ؛
وغيره لا يعلمه فيقع فيه . لذا عرفنا سقراط في حكمته
الخالدة يقول : « أعرف نفسيك » هذا أبو الفلاسفة
يقول ذلك . ولكن كيف السبيل ؟

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج
طريقان شتى : مستقيم وأعوج
طريق الصوفية ، أو طريق الفلاسفة ؟ إنك إن
إن سرت مع الصوفية عاملاً معهم أوقاراً لهم ، عرفت
نفسك كما عرفوها ، ووصلت إلى ما وصلوا إليه .
أما الفلاسفة - إن اخترت طريقهم - فهم محدثوك ،
ولكن يتعبونك قبل أن تصل معهم إلى شيء ، وقد
لا تصل إلى مرادك أبداً معهم . سيتكلمون معك عن
النفس ، ولكن ستجد أثر الصنعة في كلامهم ظاهراً :
إن أصابوا مرة ، أخطئوا مرات .
فقل لمن يدعي في العلم فلسفة :
علمت شيئاً وغابت عنك أشياء !

أما الصوفية ، فأولئك أذن الرحمن لهم ، وقالوا
صواباً . إذ هم يعملون بالحديث الشريف : « من عرف
نفسه فقد عرف ربه » .

فالأولون خطوئهم من أنفسهم ، وكل بني آدم
خطاءون ، والصوفية ما بهم من صواب فمن الله .
لذا كان من يتحدث عن النفس « كشفاً » ، غير من
يتحدث عنها علماً ، لم يوث منه إلا القليل .

ولنا في الغزالي أحسن مثل نسوقه على ماتقول
دليلاً . انظره كيف تحدث عن النفس وأسرارها ،
وكيف عالجه وحللها في كتابه الخالد « إحياء علوم
الدين » ، وقارن ذلك إن شئت ، بما يقوله علماء النفس
اليوم ، فستعلم أي الحزبين أقوى ، وأعز نفراً ،
وأنصح رأياً ، وأدرى في النفس من الآخر عرفانا ؟
ولو اتسع لنا المجال لسقنا لك من الأمثلة ما فيه الكفاية .
وحسبنا الآن الإشارة . وإن « الإحياء » في متناول
الأيدي لمن أراد عليه اطلاعاً . ولقد تحدث الغزالي
عن النفس كذلك حديثاً طلياً في كتابه الصغير حجماً ،
والعظيم كيفاً « كيمياء السعادة » .

إنه أستاذ علم النفس غير مدافع ، ولكن أكثر
الناس لا يعلمون !

ونحسب الغزالي قد أصاب في زمانه حين قال -
كما رأيت - : إن الفلاسفة أخذوا من الصوفية كلامهم
في أخلاق النفس ومزجوه بكلامهم «توسلا بالتجميل
به إلى ترويج باطلهم» وليتهم كانوا ذاك الخير يفعلون!
والغزالي حين حمل حملته هذه على الفلاسفة -
بحق - إنما كان معطيا ما للفلاسفة للفلاسفة ، وما لله
لله . فهو - كما سترى - لا يرفض الأخذ بالرأى
الصحيح يبدوونه ، ما دام ذاك الرأى لا يخالف الشرع
والدين . فإن مبدأه ، أن لا يعرف الحق بالرجال ؛ بل :
«ينظر في نفس القول ، فإن كان حقاً قبله ،
سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً» .
وذلك هو منطق الرجل العالم ، وخطة من ينشد
كالغزالي علماً يقينياً .

أما عن هذه الجماعة من المتألهين الذين يمزج
الفلاسفة كلامهم بكلامهم ، فهم كانوا في عصر
الغزالي ، بل « في كل عصر جماعة من المتألهين لا يخلى
الله تعالى العالم منهم ، فانهم أوتاد الأرض ، بيركاتهم
تنزل الرحمة إلى أهل الأرض ، كما ورد في الخبر ،
حيث قال صلى الله عليه وسلم : بهم تمطرون ، وبهم

ترزوقون ، ومنهم كان أصحاب الكهف ، وكانوا
في سالف الأزمنة كما نطق به القرآن .
مزج الفلاسفة إذن كلامهم بكلام هؤلاء . فماذا
نتج من ذلك ؟ .

« فتولد من مزجهم كلام النبوة ، وكلام الصوفية
بكتيهم ، آفتان : آفة في حق القابل ، وآفة في حق الراد»
ثم يأخذ الغزالي في بيان الآفتين :

« أما آفة في حق من رده فعظيمة . إذ ظنت طائفة
من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدونا في كتبهم
ممزوجا بباطلهم ، ينبغي أن يهجر ولا يذكر ، بل
ينكر على كل من يذكره ؛ لأنهم إذ لم يسمعه أو لا
إلا منهم ، سبق إلى عقلهم الضعيف أنه باطل لأن
قائله مبطل » .

وضرب الغزالي لذلك مثلاً : النصراني يسمعه
شخص كهذا وهو يقول لا إله إلا الله عيسى رسول الله
«فينكره ويقول هذا كلام النصارى ، ولا يتوقف
ريثاً يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول أو
باعتبار إنكاره نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فإن
لم يكن كافراً الا باعتبار إنكاره فلا ينبغي أن يخالف

فى غير ماهو كافر به مما هو حق فى نفسه وإن كان
أيضاً حقاً عنده .

ويخلص الغزالى من ذلك بأن تلك هى عادة
أصحاب العقول الضعيفة يعرفون الحق بالرجال لا
بالحق نفسه . ولكن العاقل هو الذى يجعل دستور
ما قاله الإمام على رضى الله عنه : لاتعرف الحق
بالرجال . أعرف الحق تعرف أهله .

وهنا يجعل الغزالى صفة العاقل أنه « يعرف الحق
ثم ينظر فى نفس القول ، فان كان حقاً قبله سواء
كان قائله مبطلاً أو محقاً بل ربما يحرص على انتزاع
الحق من أقاويل كلام أهل الضلال عالماً بأن معدن
الذهب الرغام » . فالصير فى لايزجر حين يدخل
يده فى كيس القلاب وينتزع الابريز الخالص من
الزيف ، وإنما الواجب زجره هو القروى حين يرغب
فى ممارسة عمل الصير فى إذ يزاول شيئاً لا يحسنه .
وكذلك السباح الحاذق لا يمنع من ساحل البحر ،
وإن منع منه الأخرق .

والصبي يصد عن مس الحية ، أما المغرم البارح
فلا خوف عليه .

ضرب الغزالى هذه الأمثلة ، وراح يبغى تطبيقها
العملى ؛ فرأى أن أكثر الخلق يحسنون الظن بأنفسهم
مدعين « الحذاقة والبراعة ، وكمال العقل فى تمييز
الحق عن الباطل . والهوى عن الضلال » .
لذلك وضع للعلاج خطة :

« يجب زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال
ما أمكن » .

ويقوى رأيه هذا ، ما ذكره فى الآفة الثانية ،
والتي سنذكرها بعد قليل .

واحتج الغزالى لرأيه كذلك بهذا الاعتراض الذى
ساقته اليه « طائفة من الذين لم تستحكم فى العلوم سر
سرائرهم ، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب
بصائرهم » .

فما الذى ساقته اليه هذه الطائفة التي نعتها بهذه
الأوصاف ؟ كان ذلك بصدد بعض كلمات بثهاتصانيفه
فى أسرار علوم الدين !

« فرعمت أن تلك الكلمات من كلمات الأوائل ! »
وهنا يأخذ الغزالى فى تفنيد ما زعموا ؛ فيقول
بأن البعض من تلك الكلمات ، إنما كان من مولدات

الخواطر . وهنا يتساءل : وماذا في ذلك ! « وهل
يبعد أن يقع الحافر على الحافر » ؟ كما أن البعض الآخر
« يوجد في الكتب الشرعية ، وأكثرها موجود معناها
في كتب الصوفية » .

ثم تأخذ الغزالي الحمية في العلم ، ونزعتها في طلب
الحق بمعرفته لا بقائله . فيصيح .

« وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان
ذلك الكلام معقولا في نفسه مؤيداً بالبرهان ، ولم
يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلا ينبغي أن
يهجر وينكر » .

وتأخذ الإمام حيرة ، فيأخذ في تصور ما يكون
عليه الحال « لو فتحنا هذا الباب وتطرفنا إلى أن
يهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل ! » .

لو فعلنا ذلك لأدى بنا الأمر « أن نهجر جملة
من آيات القرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ،
وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية » .
لماذا ؟

« لأن صاحب كتاب إخوان الصفا أوردها في
كتابه مستشهداً بها ، ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها
إلى باطله » .

ولن يقف الأمر وقتئذ عند هذا الحد ، بل
« يتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا
بايداعهم إياه كتبهم » .

ولكن للعالم المحقق صفات أقلها ما ذكره الغزالي
وهو « أن يتميز عن العامى الغمر » .

ويسوق الغزالي لذلك مثلاً قد تأثر بالبيئة وأحوال
المعيشة السائدة وقتذاك ، فيقول : إن العالم لا يعاف
العسل « وإن وجدته في محجمة الحجام » مادام يتحقق
أن طعمه لن يتغير من وجوده في المحجمة . أما العامى
فيعافه إذ يجده في المحجمة . فما علة ذلك ؟

يرجع هذا إلى « أن نفرة الطبع مبنية على جهل
عامى منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر » .
فترى الجاهل ينفر من ذاك العسل بطبعه إذ « يظن
أن الدم مستقذر لكونه في المحجمة ، ولا يدري أنه
مستقذر لصفة في ذاته ، فإذا غدمت هذه الصفة في
العسل فكونه في ظرفه لا يكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغي
أن توجب له الاستقذار » .

رأى الغزالي أن هذا الوهم الباطل هو الغالب على
أكثر الخلق « فمهما نسبت الكلام وأسندته إلى قائل

حسن في اعتقادهم ، قبلوه وإن كان باطلا ؛ وإن
أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ، ردوه وإن كان
حقاً . فهذا يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال
بالحق ، وهو غاية الضلال . تلك آفة الرد ، وقد
وقاها الغزالي حقها ؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى :

« الآفة الثانية ، آفة القبول » . وذلك أن من
ينظر في كتب هؤلاء « كإخوان الصفا وغيرهم » يرى
كلاماً جميلاً هو مزج من الحكم النبوية والكلمات
الصوفية ، ولكن دس باطلهم خلال ذلك حتى لا يعلمه
إلا خبير . فترى من ينظر في ذلك الكلام ، قد أقبل
عليه مستحسناً لما يقرؤه ، بل حسن الاعتقاد فيه ،
فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج بهذه الحكم النبوية
والكلمات الصوفية « بحسن ظن حصل مما رآه ،
وامتحنه ، وذلك نوع استدراج إلى الباطل » .

فمن أجل هذا رأى الإمام الغزالي ، حرصاً ،
على سلامة هذا الصنف من الناس ، أنه « يجب الزجر
عن مطالعة كتبهم لما فيها من الخطر والغرور » .

ومثل ذلك عنده ، أن من لا يحسن السباحة
يجب صونه عن مزلق الشطوط . ورحم الله أمراً عرف

قدر نفسه . وأنه « كما يجب صون الصبيان عن مس
الحيات ، يجب صون الأسماك عن مختلط تلك الكلمات »
« وكما يجب على المعزم ألا يمس الحية بين يدي
ولده الطفل إذا علم أنه سيقتردى به ويظن أنه مثله ،
بل يجب عليه أن يحذره ويحذر هو نفسه بين يديه ،
فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله » .

وهنا يذكر الغزالي العالم بمثالين يضعهما أمامه :
المثل الأول « المعزم الحاذق إذا أخذ الحية وميز
بين الترياق والسم ، فاستخرج منها الترياق وأبطل
السم ، فليس له أن يشع بالترياق على المحتاج إليه » .
والمثل الآخر « الصراف الناقد البصير إذا أدخل
يده في كيس القلاب وأخرج منه الإبريز الخالص
واطرح الزيف والبهرج ، فليس له أن يشع بالجلد
المرضى على من يحتاج إليه » .

ثم يقول للعالم : هكذا يجب أن تفعل . فكما أن
المعزم إذا وجد أن نفس المحتاج إلى ترياقه قد اشامت
منه ، إذ علم أن الترياق مستخرج من الحية التي هي
مركز السم ، فواجب المعزم أن يعرفه فائدة الترياق .
وكما أن الصراف ، إذا وجد أن الفقير المضطر

إلى المال ، قد نفر عن قبول الذهب المستخرج من
كيس القلاب ، فيجب أن ينبه « على أن نفرته جهل
محض هو سبب حرمانه من الفائدة التي هي مطلبه ،
وأن قرب الجواز بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد
زيفاً ، كما لا يجعل الزيف جيداً » .

كذلك رسالة العالم يجب أن تكون ؛ إذ عليه
أن يبين كيف أن « قرب الجوار بين الحق والباطل
لا يجعل الحق باطلاً ، كما لا يجعل الباطل حقاً » .

وإن في هذين المثليين اللذين ساقهما الغزالي من
الإشارات وعميق المعاني ما يذكرنا بقوله تعالى « وتلك
الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » !
صدق الغزالي ؛ فإن الحكمة ضالة المؤمن ،
وما كان الحق ليعرف بالرجال . ولكن قليل أولئك
الذين يستطيعون اطراح الترب وصون الذهب . فإن
الفيلسوف شعاره ما قاله الشاعر عن نفسه :

أنا كالمنجم تبر وثرى

فاطرحوا تربى وصونوا ذهبي

ولكن أين ذلك الناقد الخبير ؟ إنهم شرذمة

قليلون ؛ والكثرة لا تدرى أين الترب ، وأين
الذهب !

لذلك دعا الغزالي إلى وجوب الزجر عن مطالعة
كتب هؤلاء الفلاسفة - بالنسبة لذلك الصنف من
الناس - لما فيها من الخطر والغرور .

« فهذا ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها » .

الفصل السابع

ما ذكره الغزالي في مذهب التعليم وعائلته

فرغ الغزالي من الفلسفة - كما رأيت - تحصيلاً وفهماً ، وبعد أن زيّف منها ما رآه قابلاً للتزييف ، كان نصيب الفلسفة معه ما قد عرفت .

لقد وجد الغزالي أن الفلسفة لا تنى بكمال الغرض . أليست الفلسفة جل اعتمادها على العقل ؟ والغزالي يرى « أن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات » .

فليوله الله قبلة للعلم أخرى عساه يرضاها ، فولى وجهه شطر مذهب أهل التعليم .

« وكان قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحديهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق » .

فمن هم التعليمية ؟ وما مبادئهم ؟ .

إليك نبذة صغيرة عنهم ، تلقى بصيصاً من ضوء ،
ينير السبيل أمام القارئ ، قبل أن يدخل في
موضوعهم مع الغزالي ؛ إذ ربما وجد من لا يعلم
شيئاً عن هؤلاء صعوبة في تفهم مساجلة الغزالي لهم
في منقذه . ونحن نعتمد فيما ننقله لك عن مذهب أهل
التعليم ، على ما جاء به الغزالي في كتابه الخالد
« المستظهرى » الذى خصصه لبيان هذا المذهب ونقده .
وقد أشار الغزالي إلى كتابه هذا في منقذه ، إذ الناحية
التي تناول منها الغزالي التعليمية في المستظهرى ، غير
الناحية التي تناولها منها في منقذه كما سترى في موضعه
من ذلك الفصل .

التعليمية : هى تلك الفئة الضالة المضلة التى عم
شرها البلاد ، وتسربت تعاليمها إلى كثير من النفوس
الضعيفة التى يسهل خداعها بالتعاليم البراقة ، حيث
يختفى وراء ذلك البريق الزائف ، الزيف بكل معناه .
ومما زاد في خطر هؤلاء أنهم يدعون الإسلام في
الظاهر ، أما ماخفى - وماخفى عظيم - فذلك هو
الداء الدفين ، الذى لا يطلع عليه ، إلا من أخذ
العهد عليهم ، فلا يطلعونه على شيء إلا بعد أن يأخذ

على نفسه القسم ، ألا يبوح بشيء من ذلك السر الذى
سيفضى به إليه . وهنا يجد التعليمى نفسه بعد أخذ
القسم عليه ، وإطلاعه على سرهم بين نارين : إما
مصدقاً لتعاليمهم فيضل كما ضلوا ، وإما مستنكراً
ما يسمعه منهم ، من مخالفة الشرع وأحكامه ، على
ما سنبينه لك بإيجاز . وهنا يقع في حيرة شديدة
لا يعرف سبيل الخلاص منها . لقد أخذ على نفسه
القسم ألا يبوح بشيء - ولكن ما سمعه الكفر -
فان صبر على ما يقولون ، أبى ضميره أن يسكت ،
وإن أراد الكلام فثم القسم الذى أخذه على نفسه
يقطع عليه كل سبيل . وهنا تصدى الإمام الغزالي
في كتابه الخالد « المستظهرى » فأبان لمثل ذلك الشخص
كيف يخرج من ورطته ، ويتحلل من قسمه ، وذاك
موضوع يطول شرحه إن أردنا بيانه لك هنا ؛ ولكن
حسبنا أن نشير إلى عيون ما أتى به ذلك الإمام الجليل !
أحسب القارئ متشوقاً بعد هذا لمعرفة ما يدين به
هؤلاء .

زعم التعليمية أنه لا بد أن يوجد في كل زمان
إمام معصوم يرجع إليه في كل ما يتعلق بأموال الدين ،

فيكون لديه لكل مشكلة فيه حل ، والصواب ما يفتي به ، فإنه مطلع من جهة الخالق على جميع ما في الشرائع من أسرار ، فهو يهدي للتي هي أقوم ! لذلك اتفقت كلمتهم على إبطال الرأي ، ودعوا إلى التعلم من الإمام المعصوم ، ومن هذا سموا بالتعليمية. أما عن ذلك الإمام المعصوم فهو في زعمهم يجب أن يكون شخصاً من عترة رسول الله ، وهو على رضى الله عنه ، ومن بعده تكون الإمامة في أعقابه ولداً فولداً . ولما كان هذا الأمر لا يمكن أن يوجد إلامستنداً إلى نص متواتر ، فقد سول لهم شيطانهم ، وأملى لهم كفرهم بأن يتقولوا ذلك النص على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الإمامة بعدى لعلى ، وبعده لأولاده !

وهكذا يبدأ التعليمية دعوتهم بذلك الحديث يفترونه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتقولونه عليه ؛ ثم تجيء بعد ذلك هذه العصمة التامة التي يدعونها لإمامهم ؛ إذ يقولون إن الله قد أطلعه على الغيب وأسرار الشرائع ! ودعوى العصمة هذه مردودة عليهم - شأن بقية دعاويهم - لا يستطيعون إثباتها ولو كان بعضهم لبعض

ظهيراً . ولا بأس أن ننقل لك هنا شيئاً من رد الإمام الغزالي عليهم في هذه النقطة سألهم الإمام : « (١) وبماذا عرفتم صحة كونه معصوماً - أى إمامهم - ووجود عصمته ؟ أبضرورة العقل ، أو بنظره ، أو سماع خبر خبر متواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يورث العلم الضروري ؟ » .

ثم يأخذ الغزالي بخناق التعليمية من هذه النقاط الثلاث التي أوردها فيقول :

« (٢) ولا سبيل إلى دعوى الضرورة ، ولا إلى دعوى الخبر المتواتر المفيد العلم الضروري ، لأن كافة الخلق تشترك في دركه ؛ وكيف يدعى ذلك وأصل وجود الإمام لا يعرف ضرورة بل نازع منازعون فيه ، فكيف يعلم عصمته ضرورة ؟ ! وإن ادعيت ذلك بنظر العقل ، فنظر العقل عندكم باطل ، وإن سمعتم من قول إمامكم إن العصمة واجبة للإمام ، فلم صدقتموه قبل معرفة عصمته بدليل آخر ؟ وكيف

(١) المستظهرى ص ٣٩ طبعة جولد زهر المقابلة بالنسخة الألمانية ، وتوجد بمكتبة الأزهر الشريف .

(٢) المستظهرى ص ٣٩ .

يجوز أن يعرف إمامته وعصمته بمجرد قوله ؟ ! »
هذا عن المذهب في جملته ، عرفناه لك بإيجاز
ما أمكن . أما تفصيله فيتعلق بأطراف أربعة : الالهيات
والنبوات ، والإمامة ، والحشر والنشر .

أما عن الإلهيات فالتعليمية كالمجوس ، يقولون
بالإلهيين مع استبدالهم بالنور والظلمة ، السابق والتالي ،
ويضمون إلى ذلك مبتدعات من كلام الفلاسفة ،
وضلالهم .

وأما عن معتقدهم في النبوات ، فالمنقول عنهم
كما يقول الغزالي في مستظهره « قريب من مذهب
الفلاسفة ، وهو أن النبي عبارة عن شخص فاض
عليه من السابق بواسطة التالى قوة قدسية خافية مهيأة
لأن تنتعش عن الاتصال بالنفوس الكلية بما فيها من
الجزئيات ، كما قد يتفق ذلك لبعض النفوس الذكية
في المنام حتى تشاهد من مجارى الأحوال في المستقبل ،
إما صريحاً بعينه ، أو مدرجاً تحت مثال يناسبه مناسبة ما
فيفتقر فيه إلى التعبير ، إلا أن هذا النبي هو المستعد
لذلك في اليقظة ، فلذلك يدرك النبي الكليات العقلية
عند شروق ذلك النور وصفاء القوة النبوية ، كما

ينطبع مثال المحسوسات في القوة الباصرة من العين
عند شروق نور الشموس على سطوح الأجسام
الصقلية ! ولهم في جبريل والقرآن أقوال سيسألون
عنها يوم تشهد عليهم جلودهم وتنطق ألسنتهم بما كانوا
يفترون على الله بغير علم !

أما عن الإمامة فقد عرفت شيئاً مما يقولونه فيها
فيما روينا لك .

أما عن الحشر والنشر فلهم كلام في ذلك طويل ،
يحاكى ما يقوله الفلاسفة في كثير ، فهم أهل إباحة
مطلقة يرفعون الحجاب ويستبيحون المحظورات ،
ويستحلون ما حرم الله ، وينكرون ما أتت به من
الشرائع الأنبياء !

لكنهم ينكرون ذلك بأجمعهم إذا نسب إليهم .
فهم يدينون بالإسلام في الظاهر كما عرفت ، وهم
تحت ذلك الستار يستدرجون الناس من حيث
لا يعلمون ، وطريقتهم في ذلك كما يقول الغزالي (١)
أن يخادعوا كل ضعيف بطريق يعجبه ويليق به .

وسنذكر لك بإيجاز شديد طريقةهم في رمي شبابهم
واستدراج الضحية اليهم . لهم في ذلك حيل ثلاث :
حيلة التأنيس ، وحيلة التعليق ، وحيلة التدليس
أما عن حيلة التأنيس ، فهي وصولهم إلى لب
الشخص بما يستهويه وما يتفق وهواه ، حتى تميل
نفس الضحية إلى داعيتهم وتأنس إليه . من ذلك أن
يذهب داعيتهم ليبيت عند واحد من المستجيبين ،
فإن كان الداعية حسن الصوت أخذ يرتل آيات الله
بصوت جميل ، وإلا استصحب من كان له صوت
حسن لذلك الغرض ، ويلبث على ذلك الحال عدة
ليال « ثم يتبع ذلك بشيء من الكلام الرقيق وأطراف
من المواعظ اللطيفة الآخذة بمجامع القلوب ، ثم
يردف ذلك بالطعن في السلاطين وعلماء الزمان وجهال
الامة . ويذكرون أن الفرج منتظر من كل ذلك ببركة
أهل بيت رسول صلى الله عليه وسلم . وهو فيما
بين ذلك يبيكى أحياناً ويتنفس الصعداء ، وإذا ذكر
آية أو خبراً ذكر أن لله سرّاً في كلماته لا يطلع عليه
إلا من اجتباه الله من خلقه وميزه بمزيد لطفه . فإن
قدر أن يتعهد بالليل مصلياً وباكياً عند غيبة صاحب

البيت ، بحيث يطلع عليه صاحب البيت ، ثم إذا
أحس بأنه اطلع عليه عاد إلى ميته واضطجع كالذي
يقصد إخفاء عبادته ، وكل ذلك ليستحكم الأنس به
ويميل القلب إلى كلامه ، فهذه هي مرتبة التأنيس .
بعد ذلك تأتي المرحلة الثانية ، مرحلة التعليق ؛
فها هو قلب المستجيب قد أصبح منهياً لأن يتقبل
من الداعية الكثير ، بعد أن أنس إليه واطمأن له ،
فليغتنمها الداعية فرصة . فبعد أن يكون قد أثار في
ضحيته هذه الشكوك يتركه معلقاً . ولم العجلة ؟ أليس
هذا الدين أجل من أن يعبث به ؟ أويكشف لغير أهله
سره ؟ ما كان للدين أن يوضع في غير موضعه .
وعلى ذلك ما كان للمستجيب أن يطمع في أن يكشف
له داعية التعليمية ما يعلمه من سر بهذه السهولة .
وهكذا يبقى الصائد مع ضحيته يراوغها ويدافعها ،
ويهلل للمستجيب من أمر ذلك السر الذي يضمن به
على غير أهله . فان رأى الداعية بعد ذلك إعراضاً
من المستجيب واستهانة بهذه الشكوك ، انصرف عنه
ونفض يديه منه . أما إن رأى التعطش منه لسدرك
هذه الأسرار ، أمره بأن يقوم لذلك بالصوم ،

والصلاة والتوبة والتبتل إلى الله تبتيلاً ؛ لأن أمثال
هذه الأسرار المضمون بها على غير أهلها ، لاتودع
إلا في الأستار المحصنة ! ثم يخير الداعية ضحيته
بعد ذلك بين الحلف وعدمه ، قبل الإفشاء إليه
بالسر ؛ فان أبي الحلف تركه وخلى عنه ، وإن
رضى به ، أخذ عليه القسم بالكتمان ، وهو بالخيرة
بعده ، فان وفق لدرك حقيقة السر فانه لاشك
سيسعد سعادة عظمى ! وإن اشمأزت نفسه فليس
من بأس ، فان كلا ميسر لما خلق له . وهو لم يتيسر
لاحتمال أسرار أمثال هذه العظام ، ولكن يقدر
كأنه لم يسمع شيئاً - أرأيت هذه الحيلة ؟ - وكيف
يستطيع البوح بشيء قد أعطى على كتمانها أغلظ
الإيمان ؟ ما كان له أن ينقض الإيمان بعد توكيدها ! ثم
ما يعوقه عن الإفشاء ويرده دونه إن أراد ؟ إنه القسم .
فليصبر إذاً على ما قالوا ، وليضق صدره ، وإن كان
صبره على مضض !

ثم تأتي المرحلة الثالثة ، وقوامها حيلة ؛ أية حيلة !
التدليس !

وذلك أنه بعد أن يقسم اليمين ويؤكد العهد ،

لايسمح له بأن يكشف بالأسرار دفعة واحدة ، بل
على دفعات ؛ أى يأخذ السر على جرعات ! فيبدأ
معه بذكر قاعدة المذهب ويقول له الداعية :

« (١) مثار الجهل تحكيم الناس على عقولهم الناقصة ؛
وآرائهم المتناقضة ، وإعراضهم عن الاتباع والتلقى
من أصفياء الله وأئمة وأوتاد أرضه ، والذين هم
خلفاء رسوله من بعده ، فهم الذين أودعهم الله سره
المكنون ودينه المخزون ، وكشف لهم بواطن هذه
الظواهر ، وأسرار هذه الأمثلة ، وأن الرشد والنجاة
من الضلال بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت (١)
ولذلك قال عليه السلام لما قيل له : ومن أين يعرف
الحق بعدك ؟ فقال : ألم أترك فيكم القرآن وعترتي ؟
وأراد به أعقابه ، فهم الذين يطلعون على معاني القرآن »
يلقن المستجيب ذلك ابتداءً ولاشئ أكثر . أما مايقوله
الامام ؛ فلا يفصح له عن شيء ومنه !

ثم يتمشون معه بعد ذلك ويحاولون حمله على
أن يأخذ بباطن القرآن لا بظاهره ، فإن قصار العقول

(١) المستظهرى .

(٢) تأمل هذا الاستدراج . المؤلف .

هم الذين يأخذون بظواهر القرآن ، أما هو وأمثاله من أهل الذكر - التعليمية طبعاً - فانهم أرقى من ذلك . إنهم يأخذون بالبواطن . ولكن كيف ؟ عليهم أن يعطلوا مداركهم العاجزة ، ولغة عقولهم القاصرة ، ليأخذوا علمهم عن المدارك الغير المحصورة والعقل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ إمامهم المعصوم ! فعليهم إذن التعلم من ذلك المعصوم واتباعه ! وهم بسبيل إدخال هذه العقيدة الفاسدة بتلك الحيلة الخبيثة ، يلجأون إلى طرق شيطانية ، لا يتسع المقام هنا لذكرها تفصيلاً . وفي المستظهرى للغزالي ، غناء لمن أراد مزيداً .

فهو مذهب ظاهره ، كما يقول الغزالي بحق في مستظهره « الرفض وباطنه الكفر المحض ، ومفتاحه حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق » .

ولنسق لك أمثلة من تأويلات هؤلاء الباطنية حتى تعرف مدى فجورهم وضلالهم :

« (١) قالوا كل ما ورد من الظواهر في التكاليف

(١) المستظهرى .

والحشر والنشر والأمور الإلهية فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن . أما الشرعيات فمعنى الجنبانة مبادرة المستجيب بإفشاء سر اليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه . ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك . والمجامعة معناها مفاتحة من لا عهد عليه ولم يؤد شيئاً من صدقة النجوى وهى مائة وتسعة عشر درهما عندهم ؛ فلذلك أوجب الشرع القتل على الفاعل والمفعول به ؛ وإلا فالبهيمة متى يجب القتل عليها ؟ والزنا هو إلقاء نطفة العلم الباطن في نفس من لم يسبق معه عقد العهد . الاحتلام هو أن يسبق لسانه إلى إفشاء السر في غير محله . فعليه الغسل أى تجديد المعاهدة ! الطهور هو التبرى والتنظيف من اعتقاد كل مذهب سوى مبايعة الإمام . الصيام هو الإمساك عن كشف السر . الكعبة هو النبي والباب على . الصفا هو النبي والمرورة على . التلبية إجابة الداعى والطواف بالبيت سبغاً هو الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة . والصلوات الخمس أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام . فالفجر دليل السابق . والظهر دليل التالى . والعصر للأساس . والمغرب دليل الناطق . والعشاء دليل الإمام .

وكذلك زعموا أن المحرمات عبارة عن ذوى السر من الرجال وقد تعبدنا باحسانهم . كما أن العبادات عبارة عن الأخيار الأبرار . فأما الميعاد فزعم بعضهم أن النار عبارة عن الانحلال . والأوامر التي هي التكاليف فإنها موزقة على الجهال بعلمهم الباطن ، فماداموا مستمرين عليها فهم معذبون . فاذا نالوا علم الباطن وضعت عنهم أغلال التكاليف وسعدوا بالخلاص منها ، وأخذوا يؤولون كل لفظ ورد في القرآن والسنة ، فقالوا أنهم من لبن أى معادن العلم . اللبن العلم الباطن يرتضع بها أهلها وتغذى بها تغذيا تدوم بها حياته اللطيفة . فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم ، كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدى الأم . وأنهار من خمر هو العلم الظاهر . وأنهار من عسل مصفى هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة . وأما المعجزات فقد أولوا جميعها وقالوا الطوفان معناه طوفان العلم أغرق به المتمسكون بالسنة ، والسفينة حرزه الذى تحصن به من استجاب لدعوته . ونار إبراهيم عبارة عن غضب نمرود لأعن النار الحقيقية . وذبح اسحاق معناه أخذ العهد عليه .

عصا موسى حجته التى تلقفت ما كانوا يأفكون من الشبه لا الخشب . انفلاق البحر افتراق علم موسى فيهم على أقسام . والبحر هو العالم . والغمام الذى أظلمهم معناه الإمام الذى نصبه موسى لإرشادهم ، وإفاضة العلم عليهم . الجراد والقمل والضفادع هى سوالات موسى وإلزاماته التى سلطت عليهم . والمن والسلوى علم نزل من السماء لداع من الدعاة هو المراد بالسلوى . تسبيح الجبال معناه تسبيح رجال شداد فى الدين راسخين فى اليقين . الجن الذى كان مع سليمان باطنية ذلك الزمان . والشياطين هم الظاهرية الذين كلفوا بالأعمال الشاقة . عيسى له أب من حيث الظاهر ، وإنما أراد بالأب الإمام إذ لم يكن له إمام بل استفاد العلم من الله بغير واسطة . وزعموا - لعنهم الله - أن أباه يوسف النجار . كلامه فى المهد اطلاعه فى مهد القلب قبل التخلص منه على ما يطلع عليه غيره بعد الوفاة والخلاص من القلب . إحياء الموتى من عيسى معناه الإحياء بحياة العلم عن موت الجهل بالباطن . وإبرأؤه من عمى الضلال ، وبرص الكفر ببصيرة الحق المبين . إبليس وآدم عبارة عن

أني بكر وعلى إذ أمر أبو بكر بالسجود لعل والطاعة
له فأني واستكبر . الدجال زعموا أنه أبو بكر وكان
أعور إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن .
ويأجوج ومأجوج هم أهل الظاهر .

هذا من هديانهم في التأويلات حكيناها ليضحك
منها ، ونعوذ بالله من صرعة العاقل ، وكبوة الجاهل ! »
وهكذا يتضح ما في مذهب الباطنية - قبهم الله -
من ضلال وكفر وزيف . وما هذه التأويلات السمجة
الغريبة التي لجأ إليها هؤلاء الزنادقة - وقد أحطت
بنتف منها فيما نقلناه لك عن المستظهرى - إلا حيل
لجأوا إليها ليبتلوا معاني الشرع ، فزخرفوا تأويلاتهم
ومبتدعاتهم - كما رأيت - وغرضهم من ذلك
صرف الخلق عن القرآن والسنة والمراد بهما ، إذ
عجزوا عن ذلك ، إلى هاته المخاريق المزخرفة ،
والتأويلات الغريبة التي ينبو عنها كل طبع سليم ،
وكل فطرة صافية ، فطرة الله التي فطر الناس عليها
من التصديق به وبأنبيائه ورسله وكتبه وملائكته ،
فإن غريزة التصديق بهذا كله ، إنما توجد في كل قلب
سليم ؛ فالله سبحانه يقول « ولكن الله حبيب إليكم

الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق
والعصيان ، أولئك هم الراشدون » .

أما من عرفت من شياطين التعليمية ، فأولئك
هم الكاذبون الكافرون ، عليهم اللعنة ولهم سوء الدار ؟
أحسب القارئ قد كون الآن فكرة عن التعليمية
صحيحة ، تجعله مستطيعاً أن يتمشى مع الغزالي في
حديثه عنهم في منقذه من الضلال .

فقد عن الغزالي أن يبحث في مقالاتهم ويطلع على
ما في كنانتهم . وهنا يصادف أن يأتيه « أمر جازم
من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن
حقيقة مذهبهم » . فيصبح الغزالي بين عاملين كلاهما
قوى يدفعانه إلى إتمام هذه الدراسة : عامل داخلي هو
رغبته الشخصية في دراسة ذلك المذهب سعياً وراء
الحقيقة ، وعامل خارجي هو إطاعة ولي الأمر .
ويستشهد الغزالي لذلك بقوله تعالى « أطيعوا الله ،
وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم » . وعلى ذلك
أخذ الغزالي يطلب كتب التعليمية ، ويجمع
مقالاتهم ، وكان قد بلغه « بعض كلماتهم المستحدثة
التي ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على المنهاج

المعهود من سلفهم» . فاخذ يجمع تلك الكلمات ويرتبها بإحكام مع التدقيق والتحقيق حتى استوفى الجواب عنها .

وهنا أخذ بعض أهل الحق ينكرون منه هذه المبالغة في تقرير حجة التعليمية .

«وقالوا هذا سعى لهم فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم لمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها وترتيبك إياها» .

والغزالي وإن كان يرى أن هذا الانكار صائب بداءة ، بيد أن له فيما قد فعل عذراً . نعم يعرف كيف «أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي تصنيفه في الرد على المعتزلة ؛ فقال الحارث : الرد على البدعة فرض ؛ فقال أحمد : نعم ! ولكن حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها ، فم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إليه ولا يفهم كنهه ؟» .

ولكن ما ذكره ابن حنبل لا ينطبق على ما ذكره الغزالي . فهو صحيح في الشبهة التي لم تنشر

ولم تشهر «أما إذا اشتهرت فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب إلا بعد الحكاية» .

والغزالي يعرف أنه لا ينبغي أن يتكلف لهم شبهة لم تتكلف ، وهو لم يتكلفها . كل ما في الأمر أنه سمع تلك الشبهة من أحد أصحابه الذين يختلفون إليه ، وكان صاحبه هذا قد التحق بالتعليمية وانتحل مذهبهم «فحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم لأنهم لم يفهموا بعد حججهم ، ثم ذكر حججهم وحكاها عنهم» .

فلم يرض الغزالي أن يظن به الغفلة عن أصل حججهم ، فلهذا السبب أوردها ؛ ولا أن يظن به أنه قد سمعها ولكن لم يفهمها . فلهذا قررها . ومقصوده ما قاله «قررت شبهتهم إلى أقصى الامكان ثم أظهرت فسادها» .

لقد كون الغزالي في هذا المذهب وأهله رأياً ، خلص له بعد الدراسة .

«والحاصل أنه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم» . وإن الغزالي ليرجع ما انتهت إليه هذه

البدعة ، وبلوغها هذه الدرجة من الانتشار ، مع ضعفها ، إلى «سوء نصرة الصديق الجاهل» .
كيف ؟

ذلك أن «شدة التعصب دعت الذايين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم ، وإلى مجادلتهم في كل ما نطقوا به ، فجادلوه في دعواهم الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم ، ودعواهم أنه لا يصلح كل معلم بل لا بد من معلم معصوم» .
ثم يعترف الغزالي بأن التعليمية «ظهرت حاجتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم» .
فماذا نتج عن هذا ؟

«اغتر بذلك جماعة وظنوا أن ذاك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالف له» .

ولكن أتدرى الحقيقة التي غابت عن هؤلاء ؟

«هى أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقة» .
فلو أحسن من يعارض التعليمية مناهضتهم ، ومقارعتهم ، لما كان للتعليمية الغلبة بحال ، وهل كان الباطل إلا زبداً يذهب بعد حين جفاء ؟ فليأخذ الغزالي الحسام إذن ، من يد لم تحسن به دفاعاً ،

وليصل هو صولته ؛ رب الحسام أدرى أين تكون جولته . فانظر كيف أفتى الغزالي في مسألة المعلم المعصوم !

«بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى معلم ، وأنه لا بد وأن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم» !

فالغزالي يتمشى مع التعليمية في فكرة الحاجة إلى معلم ، وإلى أن يكون هذا المعلم معصوماً ، على أن يكون «معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم» .

وهنا يأخذ في حوارهم ومساجلتهم (١) .

- «قالوا هو ميت»

- «نقول ومعلمكم غائب» .

- «معلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل...؟»

(١) هذه المساجلة بين الغزالي والتعليمية حتى نهايتها قد تصرفنا في جمعها وجعلها على هذا النحو ، ولكن حرصنا - كما ترى - أن يكون الكلام منقولاً بنصه من المنقذ فهو كما ترى قد جاء بين قوسين دلالة على النقل .

«ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم ،
إذ قال الله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » وبعد
كمال التعليم لا يضر موت المعلم ، كما لا يضر
غيبته » .

- «كيف تحكمون فيما لم تسمعوه ، أفبالنص ولم
تسمعوه أم بالاجتهاد بالرأى وهو مظنة الخلاف ؟» .
«نفعل ما فعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول
الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ؛ إذ كان يحكم
بالنص عند وجوده وبالاجتihad عند عدمه ؛ بل
كما يفعله دعائكم اذا بعدوا عن الامام إلى أقاصى
الشرق إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص ، فان
النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير متناهية ،
ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الامام ؛
وإلى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات
وفات الانتفاع بالرجوع . فمن أشكلت عليه القبلة
ليس له طريق إلا أن يصلى باجتهاده ؛ إذ لو سافر
إلى بلدة الامام ليعرفه القبلة لفات وقت الصلاة ،
فاذا جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن
ويقال إن المخطئ فى الاجتهاد له أجر واحد

وللمصيب أجران ، فكذلك فى جميع المجتهدين
وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير ، فربما يظنه
فقيراً باجتهاده وهو غنى باطناً . باخفائه ماله ،
ولا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ . لأنه لم يؤاخذ
إلا بموجب ظنه » .

- «ولكن ظن مخالفه كظنه !» .

« هو مأمور باتباع ظن نفسه كالمجتهد فى القبلة
يتبع ظن نفسه وإن خالف غيره »
وهكذا يلزمهم الغزالي الحجة ، ثم يعلن أن
«رد الخلق إلى الاجتهاد ضرورة الأنبياء والأئمة مع
العلم بأنهم قد يخطئون» . ويحتج لذلك بالحديث
المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أحكم
بالظاهر والله يتولى السرائر . أى أن الرسول عليه
السلام يحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود
ومن ثم يتساءل الغزالي ، اذا اتضح أنه « لا سبيل
إلى الأمن من الخطأ للأنبياء مثل هذه المجتهدين ،
فكيف يطمع فى ذلك ؟ » .

أيوجد عند التعليمية رد لذلك فى إمامهم المعصوم ؟
وهكذا ترى الغزالي قد ننى ببراعته فكرة الامام

المعصوم التي يقول بها التعليمية ، إلا في النبي
المعصوم بإذن الله وأمره ، إمام المسلمين ، محمد
صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن التعليمية لا يكتفون بذلك القدر في
إقناعهم ويرون أن ما ذكره الغزالي وإن صح في
المجتهدات « فلا يصح في قواعد العقائد إذ المخطيء
فيها غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟ »

فيأخذ الغزالي في جلاء هذه النقطة لهم :

« إن قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة ،
وما وراء ذلك من التفصيل والمتنازع فيه ، يعرف
الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم ، وهي الموازين
التي ذكرها الله تعالى في كتابه » .

وقد ذكر الغزالي هذه الموازين الخمسة في كتابه
« القسطاس المستقيم » ونحن ننقل لك ما ذكره فيها
في كتابه هذا إتماماً للفائدة .

قال « فأكشف (١) لك عن الموازين الخمسة

(١) القسطاس المستقيم للإمام الغزالي ص ١٢ .

المنزلة في القرآن ، لتستغنى به عن كل إمام ،
وتجاوز حد العميان ، فيكون إمامك المصطفى عليه
الصلاة والسلام ، وقائدك القرآن ، ومعيارك
المشاهدة والعيان . فاعلم أن موازين القرآن في الأصل
ثلاثة : ميزان التعادل ، وميزان التلازم ، وميزان
التعاند . لكن ميزان التعادل ينقسم إلى ثلاثة أقسام :
إلى الأكبر ، والأوسط ، والأصغر ، فيصير
الجميع خمسة » .

ثم يأخذ بعد ذلك في الكلام على كل ميزان
من هذه الموازين الخمسة ، فليرجع إليها من شاء
في كتابه هذا « القسطاس المستقيم » فهو عظيم الفائدة .
وهنا يتوقع الغزالي اعتراضاً آخر من التعليمية
بشأن الميزان الذي احتج به عليهم .

- « إن خصومك يخالفونك في ذلك الميزان » .

وهنا يبادر بدفع ذلك الاعتراض فيقول :

« لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه ،
إذ لا يخالف فيه أهل التعليم ، لأنني استخرجته من
القرآن وتعلمته منه ؛ ولا يخالف فيه أهل المنطق
لأنه موافق لما شرطوه في المنطق غير مخالف له ؛

ولا يخالف فيه المتكلم لأنه موافق لما ذكره في أدلة النظريات : وبه يعرف الحق في الكلاميات .

ولكن مناظره من التعليمية ما كان ليست . قال له وهو يحاوره :

«فان كان في يدك مثل هذا الميزان : فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟» . فيقول له :

«لو أصغوا إلى لرفعت الخلاف بينهم» .

وهنا يحيل الغزالي مجادله إلى ما ذكره في رفع الخلاف في كتابه «القسطاس المستقيم» ويدعوه لتأمله ليعلم أنه حق ، وأنه يرفع الخلاف قطعاً ، ولكن عند من يحسن له إنصافاً وسميماً ؛ أى لدى أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . ولكن ما أصغى إليه إلا قليل ؛ وهؤلاء يقول فيهم الغزالي «فرفعت الخلاف بينهم» .

والحق أن الغزالي قد عقد فصلاً طويلاً في كتابه القيم «القسطاس المستقيم» ذكر فيه طرق نجاة الخلق من ظلمات الاختلافات . ونحن ننقله لك - على طوله - إتماماً للفائدة ، وحتى يكون القارئ

متمشياً مع مساجلة الغزالي للتعليمية في مراجعتها المختلفة ما أمكن .

(١) فقال كيف نجاة الخلق من هذه الاختلافات ؟ فقلت : إن أصغوا إلى رفعت الاختلافات بينهم ، بكتاب الله تعالى . ولكن لا حيلة في إصغائهم لم يصغوا بأجمعهم إلى الأنبياء ولا إلى إمامك ، فكيف يصغون إلى ؟ وكيف يجتمعون على الاصغاء وقد حكم عليهم في الأزل بأنهم لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ؛ ولذلك خلقهم ؟ وكون الخلاف بينهم ضرورياً تعرفه من كتاب جواب مفصل الخلاف وهو الفصول الاثنا عشر . فقال : فلو أصغوا كيف كنت تفعل ؟ قلت : كنت أعاملهم بآية واحدة من كتاب الله تعالى إذ قال «وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد» الآية . وإنما أنزل هذه الثلاث لأن الناس ثلاثة أصناف وكل واحد من الكتاب والحديد والميزان علاج قوم . فقال : فمن هم وكيف علاجهم ؟ قلت : الناس ثلاثة أصناف : عوام وهم أهل السلامة ، والبله وهم أهل

(١) القسطاس المستقيم للغزالي .

الجنة ، وخواص وهم أهل الذكاء والبصيرة .
ويتولد بينهم طائفة هم أهل الجدل والشغب فيتبعون
ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة . أما اخواص
فانى أعالجهم بأن أعلمهم الموازين القسط وكيفية
الوزن بها ، فيرتفع الخلاف بينهم على قرب .
وهؤلاء قوم اجتمع فيهم ثلاث خصال (إحداها)
القريحة النافذة والفتنة القوية ، وهذه عطية فطرية
وغريزة جبلية لا يمكن كسبها . (والثانية) خلو
باطنهم من تقليد وتعصب لمذهب موروث ومسموع ،
فان المقلد لا يصغى ، والبليد وإن أصغى فلا يفهم .
(والثالثة) أن يعتقد فى أنى من أهل البصيرة بالميزان ،
ومن لم يؤمن بأنك تعرف الحساب لا يمكنه أن
يتعلم منك .

(والصنف الثانى البله) وهم جميع العوام ،
وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق ،
وإن كانت لهم فطنة فطرية فليس لهم داعية الطلب ،
بل شغلهم الصناعات والحرف ، وليس فيهم
أيضاً داعية الجدل بخلاف المتكايسين فى العلم مع
قصور الفهم عنه ، فهؤلاء لا يختلفون ولكن

تخبرون بين الأئمة المختلفين ؛ فأدعو هؤلاء إلى
الله بالموعظة كما أدعو أهل البصيرة بالحكمة ،
وأدعو أهل الشغب بالمجادلة . وقد جمع الله
سبحانه وتعالى هذه الثلاثة فى آية واحدة كما تلوته
عليك أولاً ، فأقول لهم ما قاله رسول الله صلى الله
عليه وسلم لأعرابى جاءه فقال : علمنى من غرائب
العلم . فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ليس
أهلاً لذلك . فقال : وماذا عملت فى رأس العلم ،
أى الايمان والتقوى والاستعداد للآخرة ؟ اذهب
فأحكم رأس العلم ثم ارجع لأعلمك من غرائبه
فأقول للعامى : ليس الخوض فى الاختلافات من
عشك ؛ فأدرك ، فاياك أن تخوض فيه أو تصغى
إليه فتهلك . فانك إذا صرفت عمرك فى صناعة
الصياغة لم تكن من أهل العلم ومن أهل الخوض
فيه ؛ فاياك ثم إياك أن تهلك نفسك ، فكل كبيرة
تجرى على العامى أهون من أن يخوض فى العلم
فيكفر من حيث لا يدري . فان قال : لا بد من
دين أعتقده وأعمل به لأصل به إلى المغفرة ، والناس
مختلفون فى الأديان فبأى دين تأمرنى أن آخذ أو

أعول عليه ؟ فأقول له : للدين أصول وفروع
والاختلاف إنما يقع فيها ، أما الأصول فليس عليك
أن تعتقد فيها إلا ما في القرآن ، فإن الله تعالى لم
يستر عن عباده صفاته وأسماءه ، فعليك أن تعتقد
أن لا إله إلا الله ، وأن الله حي عالم قادر سميع
بصير جبار متكبر قدوس ليس كمثله شيء ، إلى
جميع ما ورد في القرآن واتفق عليه الأئمة ؛ فذلك
كاف في صحة الدين ؛ وإن تشابه عليك شيء فقل
آمنا كل من عند ربنا . واعتقد كل ما ورد في إثبات
الصفات ونفياها على غاية التعظيم والتقديس مع نفي
المماثلة ، واعتقاد أنه ليس كمثله شيء ؛ وبعد هذا
لا تلتفت إلى القيل والقال فانك غير مأمر به ولا
هو على حد طاقتك . فإن أخذ يتحذلق ويقول قد
علمت أنه عالم من القرآن ولكني لا أعلم أنه عالم
بالذات أو بعلم زائد عليه وقد اختلف فيه الأشعرية
والمعتزلة ، فقد خرج بهذا عن حد العوام ؛ إذ
العامي لا يلتفت قلبه إلى مثل هذا ما لم يحركه
شيطان الجدل ، فإن الله لا يهلك قوماً إلا يؤتيهم
الجدل ، كذلك ورد الخبر . وإذا التحق بأهل

الجدل فسأذكر علاجهم . هذا ما أعظ به في الأصول
وهو الحوالة على كتاب الله . فإن الله أنزل الكتاب
والميزان والحديد وهؤلاء أهل الحوالة على الكتاب .
وأما الفروع ، فأقول لا تشغل قلبك بمواقع الخلاف
ما لم تفرغ من جميع المتفق عليه . فقد اتفقت الأمة
على أن زاد الآخرة هو التقوى والورع ، وأن
الكسب الحرام والمال الحرام والغيبة والنميمة والزنا
والسرقة والخيانة وغير ذلك من المحظورات حرام .
والفرائض كلها واجبة ، فإن فرغت من جميعها
علمتك طريق الخلاص من الخلاف . فإن هو
طالبني بها قبل الفراغ من هذا كله فهو جدلي وليس
بعامي ، ومتى تفرغ العامى من هذا إلى مواضع
الخلاف . أفرأيت رفقاءك قد فرغوا من جميع هذا
ثم أخذ إشكال الخلاف بمخنقهم ؟ هيات ! ما أشبه
ضعف عقولهم في خلافهم إلا بعقل مريض أشرف
على الموت ، له علاج متفق عليه بين الأطباء وهو
يقول : قد اختلف الأطباء في بعض الأدوية أنها
حارة أو باردة ، وربما افتقرت إليه يوماً فأنا لا
أعالج نفسي حتى أجد من يعلمني رفع الخلاف

فيه . نعم لو رأيتم صالحاً قد فرغ من حدود التقوى كلها وقال : ها أنا تشكّل على مسائل فإنّي لا أدري أتوضأ من اللبس والتّيء والرعاف وأنوي الصوم بالليل في رمضان أو بالنهار إلى غير ذلك ، فأقول له : إن كنت تطلب الأمان في طريق الآخرة فاسلك سبيل الاحتياط وخذ بما يتفق عليه الجمع فتوضأ من كل ما فيه خلاف فإن كل من لا يوجبه يستحبه . وانو الصوم بالليل في رمضان فإن من لا يوجبه يستحبه . فإن قال هو ذا يثقل على الاحتياط ويعرض لي مسائل تدور بين النفي والاثبات ، وقال لا أدري أقنت في الصبح أم لا وأجهر بالتسمية أم لا ؟ فأقول له : الآن اجتهد مع نفسك وانظر إلى الأئمة أيهم أفضل عندك وصوابه أغلب على قلبك ، كما لو كنت مريضاً وفي البلد أطباء فإنك تختار بعض الأطباء باجتهادك لا بهواك وطبعك ، فيكفيك مثل ذلك الاجتهاد في أمر دينك ، فمن غلب على ظنك أنه الأفضل فاتبعه ، فإن أصاب فما قال عند الله فله في ذلك أجران ، وإن أخطأ فله في ذلك عند الله أجر واحد ، وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، إذ قال : من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد . ورد الله تعالى الأمر إلى أهل الاجتهاد وقال تعالى لتعليمه : الذين يستنبطونه منهم . وارتضى الاجتهاد لأهله إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : بم تحكم ؟ قال بكتاب الله . قال فإن لم تجد ؟ قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم تجد ؟ قال أجتهد رأيي . قال ذلك قبل أن أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذن له فيه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله . ففهم من ذلك أنه مرضى به من رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وغيره . كما قال الاعرابي : إني هلك وأهلك ! واقعت أهلي في نهار رمضان . فقال : أعتق رقبة . ففهم أن التركي أو الهندي لو جامع أيضاً لزمه الاعتاق . وهذا لأن الخلق ما كلفوا الصواب عند الله فإن ذلك غير مقدور عليه ولا تكليف بما لا يطاق بل كلفوا ما يظنونه صواباً . كما لم يكلفوا بالصلاة بثوب طاهر بل بثوب يظنون أنه طاهر ، فلو

تذكروا نجاسته لم يلزمهم القضاء ، إذ نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم نعله في أثناء الصلاة لما أنبأه جبريل أن عليه قدراً ولم يعد الصلاة ولم يستأنف . وكذلك لم يكلف أن يصلي إلى القبلة بل إلى جهة يظن أنها القبلة بالاستدلال بالجبال والكواكب والشمس ، فان أصاب فله أجران وإلا فله أجر واحد . ولم يكلفوا أداء الزكاة إلى الفقير بل إلى من ظنوا فقره ؛ لأن ذلك لا يعرف باطنه . ولم يكلف القضاء في سفك الدماء وإباحة الفروج طلب شهود يعلمون صدقهم بل من يظنون صدقه . وإذا جاز سفك دم بظن يحتمل الخطأ وهو ظن صدق الشهود ، فلم لا تجوز الصلاة بظن شهادة الأدلة عند الاجتهاد ؟ وليت شعري ماذا يقول رفقائك في هذا ؟ يقولون إذا اشتبهت عليه القبلة يؤخر الصلاة حتى يسافر إلى الامام ويسأله ، أو يكلفه الاصابة التي لا يطيقها ، أو يقول اجتهد لمن لا يمكنه الاجتهاد إذ لا يعرف أدلة القبلة وكيفية الاستدلال بالكواكب والجبال والرياح ! قال لا أشك في أنه يأذن له في الاجتهاد ثم لا يؤثمه إذا بذل كنه مجهوده وإن أخطأ أو صلى

إلى غير القبلة . قلت فإذا كان من جعل القبلة خلفه معذوراً مأجوراً فلا يبعد أن يكون من أخطأ في سائر الاجتهادات معذوراً ؛ فالمجتهدون ومقلدوهم كلهم يشاركون المصيبين في أحد الأجرين ، فمناصبهم معذورون ؛ بعضهم مصيبون ما عند الله وبعضهم متقاربة ، وليس لهم أن يتعاندوا وأن يتعصب بعضهم مع بعض لا سيما والمصيب لا يتعب ، وكل واحد منهم يظن أنه مصيب ؛ كما لو اجتهد مسافران في القبلة فاختلفا في الاجتهاد فحقها أن يصلي كل واحد منهما إلى الجهة التي غلبت على ظنه ، وأن يكف إنكاره وإعراضه واعتراضه على صاحبه لأنه لم يكلف الا استعمال موجب ظنه . أما استقبال عين القبلة عند الله فلا يقدر عليه ؛ وكذلك كان معاذ في اليمن يجتهد لا على اعتقاد أنه لا يتصور منه الخطأ ، لكن على اعتقاد أنه إن أخطأ كان معذوراً ؛ وهذا لأن الأمور الوضعية الشرعية التي يتصور أن تختلف بها الشرائع يقرب فيها الشيء من نقيضه بعد كونه مظهرًا في سر الاستبصار . وأما ما لا تتغير فيه الشرائع فليس فيه اختلاف . وحقيقة هذا الفصل

تعرفها من أسرار اتباع السنة ، وقد ذكرته في الفصل العاشر من الأعمال الظاهرة من كتاب جواهر القرآن . (وأما الصنف الثالث) وهم أهل الجدل فإني أدعوهم بالتلطف إلى الحق ، وأعني بالتلطف ألا أتعصب عليهم ولا أعنفهم ، لكن أرفق وأجادل بالتي هي أحسن . وكذلك أمر الله تعالى رسوله . ومعنى المجادلة بالأحسن أن آخذ الأصول التي يسلمها الجدل وأستنتج منها الحق بالميزان المحقق على الوجه الذي أوردته في كتاب « الاقتصاد في الاعتقاد » وإلى ذلك الحد . فإن لم يقنعه ذلك لتشوفه بفطنته إلى مزيد ، كشف رغبته إلى تعليم الموازين . فان لم يقنعه لبلادته وإصراره على تعصبه ولجأه وعناده ، عاجلته بالحديد ، فإن الله سبحانه جعل الحديد والميزان قرينى الكتاب ليفهم منه أن جميع الخلائق لا يقومون بالقسط إلا بهذه الثلاث . فالكتاب للعوام ، والميزان للخواص ، والحديد الذى فيه بأس شديد للذين يتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ولا يعلمون أن ذلك ليس من شأنهم وأنه لا يعلم تأويله إلا الله

والراسخون في العلم دون أهل الجدل . وأعني بأهل الجدل طائفة فيهم كياسة ترقوا بها عن العوام ولكن كياستهم ناقصة إذ كانت الفطرة كاملة لكن في باطنهم خبث وعناد وتعصب وتقليد ، فذلك يمنعهم عن إدراك الحق ، وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً . لكن لم تهلكهم إلا كياستهم الناقصة فإن الفطنة البتراء والكياسة الناقصة شر من البلاهة بكثير . وفي الخبر أن أكثر أهل الجنة البله ، وأن عليين لذوى الألباب ؛ ويخرج من جملة الفريقين الذين يجادلون في آيات الله وأولئك أصحاب النار ، ويزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وهؤلاء ينبغي أن يمنعوا من الجدل بالسيف والسنان كما فعل عمر رضى الله عنه برجل إذ سأله عن آيتين متشابهتين في كتاب الله تعالى فعلاه بالدرة . وكما قال مالك رضى الله عنه لما سئل عن الاستواء على العرش فقال : الاستواء حق والإيمان به واجب والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة . وجسم بذلك باب الجدل وكذلك فعل السلف كلهم . وفي فتح باب الجدل ضرر عظيم

على عباد الله تعالى . فهذا مذهبي في دعوة الناس إلى الحق وإخراجهم من ظلمات الضلال إلى نور الحق . وذلك بأن دعوة الخواص إلى الحكمة بتعليم الميزان ، حتى إذا تعلم الميزان القسط لم يقدر به على علم واحد بل على علوم كثيرة ، فإن من معه ميزان فانه يعرف به مقادير أعيان لا نهاية لها ، كذلك من معه القسطاس المستقيم فمعه الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتي خيراً كثيراً لا نهاية له . ولولا اشتغال القرآن على الموازين لما صح تسمية القرآن نوراً ، لأن النور ما يبصر بنفسه ويبصر به غيره وهو نعت الميزان ؛ ولما صدق قوله : ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ؛ فإن جميع العلوم غير موجودة في القرآن بالتصريح ولكن موجودة فيه بالقوة لما فيه من الموازين القسط التي بها تفتح أبواب الحكمة التي لا نهاية لها . فهذا أدعو الخواص ؛ ودعوت العوام بالموعظة الحسنة بالاحالة على الكتاب والاقتصار على ما فيه من الصفات الثابتة لله تعالى . ودعوت أهل الجدل بالمجادلة التي هي أحسن . فإن أبي أعرضت عن مخاطبته وكففت شره ببأس السلطان والحديد المنزل مع الميزان .

فليت شعري الآن يا رفيقي بم يعالج إمامك هؤلاء الأصناف الثلاثة ؟ أيعلم العوام فيكلفهم ما لا يفهمون ويخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أو يخرج الجدل من أدمغة المجادلين بالمحاجة ولم يقدر على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كثرة محاجة الله تعالى في القرآن مع الكفار ؟ فما أعظم قدرة إمامك إذ صار أقدر من الله تعالى ومن رسوله ! أو يدعو أهل البصيرة إلى تقليده وهم لا يقبلون قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتقليد ولا يقنعون بقلب العصا ثعباناً بل يقولون وهو فعل غريب ولكن من أين يلزم منه صدق فاعله ؟ وفي العالم من غرائب السحر والطلسمات ما تتحير فيه العقول ولا يقوى على تمييزه المعجزة عن السحر والطلسم إلا من عرف جميعها وجملتها أنواعها ليعلم أن المعجز خارج عنها ، كما عرف سحرة فرعون معجزة موسى عليه السلام إذ كانوا من أئمة السحرة . ومن الذي يقوى على ذلك ؟ بل أهل البصيرة يريدون مع المعجزة أن يعلموا صدقه من قوله كما يعلم متعلم الحساب من نفس الحساب

صدق أستاذه في قوله إني حاسب. فهذه هي المعرفة اليقينية التي بها يقنع أولو الألباب وأهل البصائر ولا يقنعون بغيرها البتة. وهم إذا عرفوا بمثل هذا المهاج صدق الرسول عليه الصلاة والسلام وصدق القرآن وفهموا موازين القرآن كما ذكرت لك، وأخذوا منه مفاتيح العلوم كلها مع الموازين كما ذكرته في كتاب جواهر القرآن، فمن أين يحتاجون إلى إمامك المعصوم؟ وما الذي حل من إشكالات الدين؟ وعن ماذا كشف عن غوامضه؟ قال الله تعالى (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه). وقد سمعت الآن منهاجى في موازين العلوم، فأرني ماذا اقتبسته من غوامض العلوم من إمامك إلى الآن. وما الذي يتعلمون منه؟ وليت شعري ما الذي تعلمت من إمامك المعصوم أرني ما رأيته؟ فليس الغرض من الدعوة إلى المائدة مجرد الدعوة دون الأكل والتناول منها. وإني أراكم تدعون الناس إلى الامام ثم أرى المستجيب أمامك بعد الاستجابة على جهله الذي كان قبله. لم يحل له الامام عقداً بل ربما عقد له حلاً ولم تفده استجابته

له علماً، بل ربما زاد به طغياناً وجهلاً. فقال: قد طالت صحبتي مع رفقائي ولكن ما تعلمت منهم شيئاً إلا أنهم يقولون عليك بمذهب التعليم وإياك والرأى والقياس فإنه متعارض مختلف. قلت: فمن الغرائب أن يدعو إلى التعليم ثم لا يشتغلوا بالتعليم. فقل لهم قد دعوتهم إلى التعليم فاستجبت. فعلموني ما عندكم. فقال: ما أراهم يزيدونى على هذا شيئاً. قلت: فإني قائل أيضاً بالتعليم وبالامام وبيطلان الرأى والقياس وأنا أزيدك على هذا لو أطق ترك التقليد، تعليم غرائب العلوم وأسرار القرآن؛ فاستخرج لك منه مفاتيح العلوم كلها، كما استخرجت منه موازين العلوم كلها، على ما أشرت إلى كيفية انشعاب العلوم كلها منه في كتاب جواهر القرآن، لكنى لست أدعو إلى إمام سوى محمد صلى الله عليه وسلم، ولا إلى كتاب سوى القرآن، فمنه أستخرج جميع أسرار العلوم. وبرهاني على ذلك لسانی وبياني. وعليك إن شككت تجربتي وامتحاني. أفتراني أولى بأن يتعلم منى من رفقائك أم لا؟» انتهى.

وهكذا يتضح لك كيف حمل الغزالي على مذهب أهل التعليم ونقضه من أساسه ، مبيناً - كما رأيت - خطأ فكرة الإمام المعصوم ، وأنه لا إمام للمسلمين معصوماً سوى محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ولكن التعليم ما كان ليقر بهزيمة أمام الغزالي ، وحيال ما أبداه له حجة الاسلام من صادق البراهين والحجج والآيات ، فهو يسأله بعد هذا كله :
- « (١) ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ؛ ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة والاختلافات المتقابلة لم يلزمه الاصغاء اليك دون خصمك ، ولك خصوم يخالفونك ولا فرق بينك وبينهم ؟ » .
فيجيبه الغزالي :

« هذا أولاً ينقلب عليك ، فانك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك فيقول المتحير : بم صرت أولاً من مخالفيك ، وأكثر أهل العلم يخالفونك ؟ فليت شعري بماذا تجيب بأن تقول إمامي منصوص عليه ! فمتى يصدقك في دعوى النص ، وهو لم يسمع

(١) منقذ .

النص من الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ وإنما لم يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك . ثم هب أنه سلم النص ، فإذا كان متحيراً في أصل النبوة فقال : هب أن إمامك يدلي بمعجزة عيسى عليه السلام ، فيقول : الدليل على صدق أني أحبي أباك وأحياء ، فناطقني بأني محق ، فهاذا أعلم أنه صدقه ولم تعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشككة ما لا يرفع إلا بدقة النظر العقلي ؛ والنظر العقلي لا يوثق به عندك ؛ ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف السحر والتميز بينه وبين المعجزة ، وما لم يعرف أن الله لا يضل عباده ، وسؤال الاضلال وعسر الجواب عنه مشهور ، فهاذا تدافع جميع ذلك ولم يكن إمامك أولى بالمتابعة من مخالفه ؟ » .

وهنا يعلن الغزالي ، أن هذا السؤال قد انقلب على التعليمية انقلاباً عظيماً « لو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً لم يقدرُوا عليه » .

ثم يقرر أن علة منشأ الفساد ، وظهور زبد مذهب أهل التعليم وكان الأحرى به أن يذهب جفاء ، هو

ضعف الجماعة التي تصدت لمناظرة هؤلاء « فلم يشتغلوا بالقلب بل بالجواب . وذلك مما يطول فيه الكلام ولا يسبق سريعاً إلى الأفهام ، فلا يصلح للافحام » .

ولكن الغزالي يأخذ هنا حيطة ، حذر أن يقول له قائل « فهذا هو القلب . فهل عنه جواب ؟ » . فيجيبه الغزالي :

« نعم : جوابه أن المتحير إن قال أنا متحير ولم يعين المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له : أنت كمريض يقول أنا مريض ولا يذكر عين مرضه ويطلب علاجه ، فيقال له : ليس في الوجود علاج للمرض المطلق بل لمرض معين من صداع أو سعال أو غيرها . فكذلك المتحير ينبغي أن يعين ما هو متحير فيه . فان عين المسألة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة التي لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق الذي يوثق بكل ما يوزن به يفهم الميزان ، ويفهم أيضاً منه صحة الوزن ، كما يفهم متعلم الحساب نفس الحساب ، وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب وصادقاً فيه .

وقد عرفت شرح هذا الكلام فيما سبق أن نقلنا لك عن الغزالي من كتابه « القسطاس المستقيم » ومما يلزم التنويه به هنا ، هو أن الغزالي لم يقصد مما ذكره في « منقذه » عن مذهب أهل التعليم ، بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكر ذلك في كتب أخرى خصها لذلك الغرض ، وهي « المستظهرى » وكتاب حجة الحق ، وكتاب مفصل الخلاف ، وكتاب الدرج المرقوم بالجداول ، ثم كتاب القسطاس المستقيم ، وهذا قد نقلنا لك فصلاً منه ساقطنا إليه الضرورة ، كما رأيت . ولكن كان قصد الغزالي حين أشار إلى التعليمية في « منقذه من الضلال » هو ما بينه بنفسه :

« المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء » .

لقد ظهر عجز أهل ذلك المذهب عن إقامة البرهان على تعيين الامام ، فإذا فعل الغزالي معهم ، وحجتهم عنده ، كما ترى ، داحضة ؟

سيتمشى معهم - رغم ذلك - حتى النهاية ، فيجاريهم ويصدقهم « في الحاجة إلى التعليم وإلى

المعلم المعصوم». سيستدرجهم من حيث لا يعلمون !
إنه يسألهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم ،
ويثنى الضربة بأخرى ، إذ يعرض عليهم إشكالات
« فلم يفهموها ، فضلاً عن القيام بحلها » .

لقد افتضح أمرهم ، وظهر عجزهم كما ترى ،
ولكنهم سيتصرفون بما هو أغرب وأعجب .

« فلما عجزوا أحالوا على الامام الغائب ، وقالوا
لا بد من السفر اليه » !

فحق للغزالي إذن ، أن يعجب لحال هؤلاء .
يضيعون العمر فى طلب المعلم ، ويتبجحون بالظفر
به ، وهم لا يتعلمون منه شيئاً أصلاً « كالمضمخ
بالنجاسة يتعب فى طلب الماء حتى إذا وجده لم
يستعمله وبقي مضمخاً بالخبائث » .

وقد وجد الغزالي من ادعى شيئاً من علم هؤلاء ،
فماذا كان حاصل ما ذكره ؟

« شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورث ، وهو رجل
من القدماء الأوائل ، ومذهبه أرك من مذاهب
الفلاسفة ، وقد رد عليه ارسطاطاليس بل استرك

كلامه واسترذله ، وهو المحكى فى كتاب إخوان
الصفاء ، وهو على التحقيق حشو الفلسفة » .

وإن تعجب فاعجب مع الغزالي لذلك الشخص
الذى « يتعب طول العمر فى طلب المعلم ، ثم يقنع
بمثل ذلك المعلم الركيك المستغث ويظن أنه ظفر
بأقصى مقاصد العلوم » !

ولكن الغزالي لن يكون ذلك الشخص . لقد
جربهم وسبر ظاهريهم وباطنيهم فاذا مرجع حاصلهم
هو « استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة
إلى المعلم ومجادلتهم فى إنكارهم الحاجة إلى التعليم ،
بكلام قوى مفحم حتى اذا ساعدهم على الحاجة إلى
المعلم مساعد وقال هات علمه وأفدنا من تعليمه
واقف وقال : الآن إذا سلمت لى هذا فاطلبه فانما
لا غرضى هذا القدر فقط ؛ إذ علم أنه لو زاد على
ذلك لا فتضح ولعجز عن حل أدنى المشكلات ، بل
عجز عن فهمه فضلاً عن جوابه » !

ذلك مبلغهم من العلم . وهو علم لا يرضى به
عاقل ، فضلاً عما يسعى وراء ذلك العلم الأسمى ،

العلم اليقيني ! فكان شأن الغزالي مع التعليمية ما هو
منتظر ، أن ينفض اليد عنهم ايضا .

تلك هى المرحلة الثالثة التى قطعها الغزالي فى
شوطه صوب العلم اليقيني . تبقى المرحلة الرابعة
والأخيرة ، فإلى طريق الصوفية .

الفصل الثامن

طريق الصوفية

« ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتى
على طريق الصوفية » .

لقد مر الغزالي بوادى الفلاسفة ، وعلم الكلام ،
ومذهب أهل التعليم - على ما رأيت - فلم يسكن إلى
واد منها ، يجد فيه شفاء لما فى نفسه ، من رغبة
جامحة تدفعه إلى طلب الحقيقة . وعلى ذلك لم يبق
أمامه إلا الطريق الرابع والأخير : طريق الصوفية .
فليلججه بسلام إذ هو أمله الأخير ، لأن الحق - كما
قال - لا يعدو هذه الطرق الأربع « فإن شذ الحق
عنهم فلا يبقى فى درك الحق مطمع » .

فأقبل الغزالي بهمته - على حد تعبيره - على طريق
الصوفية . وهنا يعلن أن طريقة هؤلاء إنما تتم بعلم
وعمل .

فما هو حاصل علمهم ؟

«قطع عقبات النفس ، والتزهد عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله» .

وعلى ذلك وقف الغزالي ينظر ، أمامه طريقان متشعبان : علم وعمل ، فبأيها يبدأ ؟
«وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم» .

فطالع كتبهم . قرأ قوت القلوب لأبي طالب المكي ، وما ألفه الحارث المحاسبي ، وما أثر عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي من متفرقات ، وغير ذلك كثير . ووعى كلام مشايخهم حتى وصل إلى الدرجة التي يعلنها في منقذه من أنه أصبح مطلعاً «على كنه مقاصدهم العلمية» .

ويقول كذلك «وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع» .

فما أفاد الغزالي من هذه الخبرة العلمية ؟
لقد ظهر له أن «أخص خواصهم ما لا يمكن

الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق ، والحال ، وتبدل الصفات» .

ويضرب لذلك أمثلة بليغة فيقول :

«كم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان ، وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران . بل السكران لا يعرف حد السكر ، وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء . والصاحي يعرف حد السكر وأركانها وما معه شيء من السكر . والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة . فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه ، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا» .

خلص للغزالي إذن أن الصوفية إنما هم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال . وقد حصل من طريقهم كل ما يمكن تحصيله بطريق العلم ، وبقي «ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك» .

وهنا يقرر الغزالي أنه قد حصل معه من العلوم
التي مارسها وما سلكه من مسالك في التفتيش عن -
صنفي العلوم الشرعية والعقلية - ماذا ؟

«إيمان يقيني بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم
الآخر» .

وأن هذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد
رسخت في نفسه «لا بدليل معين محرر بل بأسباب
وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفصيلها» .
وقد ظهر للغزالي أنه لا مطمع له في سعادة الآخرة
إلا بالتقوى ، والتغلب على نفسه بكفها عن هواها .
ولكن كيف السبيل ؟

أن يقطع علاقة قلبه بالدنيا ، وذلك «بالتجافي
عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال
بكنه الهمة على الله تعالى» .

ولكن حتى يتم له ذلك ، ماذا يتحتم عليه ؟
أن يعرض عن المال وعن الجاه ، وأن يهرب من
الشواغل والعوائق .

لقد حدد الغزالي الهدف ، ورسم الطريق ، ولم
يبق عليه إلا اجتيازه ، وكما يُبعد المسافر حقائقه قبل

اجتياز الطريق ، ويتفقد لوازم السفر ، ما ينقصه
وما يحتاج إليه ، أخذ الغزالي يتفقد أحواله «فإذا
أنا منغمس في العلائق وقد أهدت بي من الجوانب» .
ثم أخذ يلاحظ أعماله وأحسنها التدريس والتعليم
«فإذا أنا مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في
طريق الآخرة» .

والنية - هل ينساها الغزالي ؟

لا ، إنما الأعمال بالنيات ، والغزالي يريد الآن
الآخرة ، فهو مقبل على دور محاسبة نفسه ، فإذا
كانت نيته فيما يعمل لله رضى ، وإن لم تكن كذلك ،
فعليه أن يتلافى الأحوال ، وعلى ذلك أخذ يتفكر
في نيته في التدريس «فإذا هي غير خالصة لوجه الله
تعالى ، بل باعها ومحركها طلب الجاه وانتشار
الصيت» .

فأيقن أنه على شفا جرف هار . لقد أشفى على
النار . إذن وجب عليه أن يشتغل بمعالجة نفسه
للخلاص ، قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال .

وعلى ذلك لبث الغزالي مدة يفكر وهو بين
عاملين يتجاذبان : زهد في الدنيا ، ورغبة فيها ،

ما يكاد يصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال فيقدم رجله ، حتى ينحل عزمه فينكص على عقبيه ، ولا تكاد تصدق له رغبة في طلب الآخرة بكرة «إلا ويحمل عليه جند الشهوة فيفترها عشية» .

إنهما الخير والشر يتطاحنان ، وسرى لمن يكون الغلب أخيراً . حفت الدنيا بالشهوات ، وقد خلق الانسان ضعيفاً . وللشهوات سلاسل أخذت تجذب الغزالي إلى المقام .

ولكن منادى الايمان أخذ ينادى «الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل ، فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟» .

فعندما يسمع الغزالي منادى الايمان يهتف له بهذا ، لا يسعه إلا أن يستجيب له .

«فتنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار» ولكن الشيطان ما يلبث أن يعاوده ، مجدداً كرتة ،

فيقول له الوسواس الخناس ، موسوساً في صدره : «هذه حالة عارضة ، وإياك أن تطاوعها فهي سريعة الزوال . فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي من التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما ألقت إليه نفسك ولا يتيسر المعاودة» . وهكذا لبث الغزالي يتردد بين «تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة» .

ولكن الأمر ما لبث أن جاوز أخيراً حد الاختيار إلى الاضطرار ، لأن الله سبحانه كان قد كتب في لوح الأزل ، أن يكون الغزالي من عباده الذين اصطفى واجتبي ، فقرر عزم الغزالي على السفر . وسيكون ذلك السفر إيذاناً ببدء عهد جديد في حياة الغزالي ، بل في تاريخ التصوف المجيد .

ولكن ما الذي حدث حتى قرر عزم الغزالي نهائياً على ذلك السفر ، بعد ما رأينا كيف طال تروده بين الشهوة في الدنيا والرغبة في الآخرة ؟ لذلك أسباب عدة ، والله قد جعل لكل شئ

سبباً ، يتبع سبباً ، وقد كان ، إذا اعتقل الله لسانه
عن التدريس ؛ وسدى يجاهد نفسه أن يرجع
للتدريس ولو يوماً واحداً ، يطيب فيه قلوب
المختلفين إليه ؛ بيد أن لسانه ما كان يستطيع
التلفظ بكلمة !

وبدهى أن تورثه هذه العقلة في اللسان ، حزنا
وأسى في القلب . ونتج من ذلك أن بطلت قوة
الهضم عنده ، وزهد في الطعام والشراب «فكان لا
ينساغ لى شربة ، ولا ينهضم لى لقمة» .

ومن كان ذلك شأنه ، فلا بد أن تضعف قواه ،
فضعف وذبل ، وخيف على خفقة في السراج ،
يلفظها ثم لا يسطع . وهنا يجتمع الأطباء ويعلنون
بأسهم من حالته .

«وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى
المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا أن يتروح
السر عن الهم الملم» .

أحس الغزالي عجزه المطلق ، فلم يسعه إلا أن
يلتجئ إلى الله تعالى «التجاء المضطر الذى لا حيلة له»
فأجابه الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل

عليه - كما يقول - الاعراض «عن الجاه والمال
والأهل والولد والأصحاب» . فانتوى السفر إلى
الشام والاقامة به ، ولكنه خشى إن هو أظهر نيته
تلك ، أن يقف ضد رغبته الخليفة والأصحاب .
هل إلى خروج من سبيل ؟

هنا واثته فكرة ، فأعلن أنه إنما يريد الخروج إلى
مكة . ثم أخذ يعمل الحيلة حتى استطاع الخروج من
بغداد ، فأخرجه الله منها مخرج صدق ، وقد انتوى
ألا يعود إليها أبدا .

فلا تسئل عن اللوم كيف أخذ ينصب عليه من
كل جانب . لقد لامه أهل العراق كافة «إذ لم يكن
فيهم من يجوز أن يكون الاعراض عما كنت فيه
سبباً دينياً ؛ إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في
الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم» .

وأخذ الناس يستنبطون كما يحلو لهم . فالبعيدون
عن العراق يظنون أن الغزالي ما اعترم الرحيل إلا
وقد شعر الجفوة من الولاية . «وأما من قرب من
الولاية فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بى والانكباب
على وإعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم .

فيقولون : هذا أمر سماوى وليس له سبب إلا عين
أصابته أهل الاسلام وزمرة العلم .

وهكذا فارق الغزالي بغداد ، وخرج مهاجراً في
سبيل الله ، بعد أن فرق ما كان معه من مال دون
أن يدخر شيئاً سوى ما ذكره «قدر الكفاف وقوت
الأطفال» .

ثم أدخل الله الغزالي الشام مدخل صدق ، فأقام
به زهاء سنتين .

فتعال بنا نسأل حجة الاسلام فيما قضاها ؟

- « في العزلة والخلوة والريضة والمجاهدة ،
اشتغالا بتركية النفس ، وبتهذيب الأخلاق ، وتصفية
القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم
الصوفية » .

- وماذا كنت تفعل ؟

« كنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ؛ أصعد
منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي » .
- وهل ألقى عصاك في دمشق واستقر بك النوى ؟

« لقد رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل
اليوم الصخرة وأغلق بابها على نفسي » .

- ولم غادرت بيت المقدس بعد ذلك إلى الحجاز ؟

« لقد تحركت في داعية فريضة الحج والاستمداد
من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله صلى
الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات
الله عليه » .

- لقد عرفنا سبب سفرك للحجاز ، ولكن لم
نعرف لم عدت لوطنك ثانية بعد أن فارقت معتماً
عدم العودة إليه ؟

« جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ،
فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع
إليه » .

- فلم آثرت العزلة أيضاً بعد رجوعك إلى الوطن ؟

« حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر » .

- وهل استطعت أن تنعم بالخلوة كما ينبغي ؟

« لقد كانت حوادث الزمان ومهمات العيال

وضرورات المعيشة تغير في وجه المراد وتشوش
صفوة الخلوة . وكان لا يصفو الحال إلا في أوقات
متفرقة ، لكن مع ذلك لا أقطع الطمع منها ،
فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها .
- كم ابشت على ذلك الحال ؟

«دمت على ذلك مقدار عشر سنين» .

- كنت تبغى الكشف من وراء هذه الخلوات فهل
أعطيته ؟

«انكشف لى في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن
إحصاؤها واستقصاؤها» .

- هلا ذكرت لنا قدرا ينتفع به ؟

«علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق
الله تعالى ، خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ،
وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أذكى الأخلاق
بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم
الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا
من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم

يجدوا اليه سبيلا ، فان جميع حركاتهم وسكناتهم
في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ،
وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور
يستضاء به » .

- فما أول شرائط هذه الطريقة ؟

«تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى» .

- فما مفتاحها ؟

«مفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة ،
استغراق القلب بذكر الله» .

- فما آخرها ؟

«الفناء بالكلية في الله تعالى . وهذه آخرها بالاضافة
إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من
أوائها ، وهى على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل
ذلك كالدهليز للسالك فيه» .

- ومن أين تبتدىء المكاشفات والمشاهدات ؟

«من أول الطريقة ، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون
الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ،

ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق .
- هل لك أن تعبر لنا عنها حتى تقر بها من أذهاننا ؟

« لا يحاول المعبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه . وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول . وكل ذلك خطأ وقد بينا وجه الخطأ فيه .

- فى أى كتبك بينت هذا الخطأ ؟

« فى كتاب المقصد الأقصى »

- هلا زدتنا شيئاً ، فأنت ممن ذاق فعرف ؟

« وكان ما كان مما لست أذكره »

فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر »

- إذن ما ترى فيمن لم يرزق من ذلك شيئاً بالذوق ،

وهل يدرك حقيقة النبوة ؟

« من لم يرزق منه شيئاً بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم . »

- وما تقول فى كرامات الأولياء ؟

« هى على التحقيق بدايات الأنبياء . وكان ذلك

أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب : إن محمداً عشق ربه . »

- تقول إذن إن تلك حالة يتحققها بالذوق من يسلك

سبيلها ، فمن لم يرزقه فكيف يكون سبيله إليها ؟

« يتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر الصحة معهم

حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقينا . فمن جالسهم

استفاد منهم هذا الايمان ؛ فهم القوم لا يشقى

جليسهم . »

- هذا فيمن رزق صحبتهم ، فكيف يعلم ذلك من

لم يرزق صحبتهم ؟

« يعلم ذلك يقينا بشواهد البرهان . »

- فان كان لا يعلم من شواهد البرهان شيئاً ، فأين

يجد ما يعرفه إياها ؟

« فى كتاب عجائب القلب من كتاب الأحياء . »

- فاذا كرر لنا الآن شيئاً ولو يسيراً عن التحقيق

بالبرهان .

« التحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة

ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن

إيمان . وهذه ثلاث درجات (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .
- ومن وراء هؤلاء ؟

«وراء هؤلاء قوم جهال هم المنكرون لأصل ذلك، المتعجبون من هذا الكلام ؛ يسمعون ويسخرون ، ويقولون العجب أنهم كيف يهذون . وفيهم قال الله تعالى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ... فأصمهم وأعمى أبصارهم) .

- لقد مارست طريقة الصوفية ، فهل بان لك شيء بالضرورة من هذه الممارسة ؟
«حقيقة النبوة وخاصيتها» .

- فهل لك أن تذكر لنا قولاً في حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها ؟

«اعلم أن جوهر الانسان في أصل الفطرة خلق خالياً سادجاً لا خبرة معه عن عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى كما قال (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وإنما خبره عن العالم

بواسطة الادراك ، وكل إدراك من الادراكات خلق ليطلع الانسان به على عالم من الموجودات ، ونعني بالعالم أجناس الموجودات . فأول ما يخلق في الانسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والحشونة وغيرها ، واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً ، بل هي كالمعدومة في حق اللمس ! ثم يخلق له البصر ، فيدرك به الألوان والأشكال وهو أوسع عوالم المحسوسات . ثم يفتح له السمع ، فيسمع الأصوات والنغمات . ثم يخلق له الذوق كذلك . إلى أن يجاوز عالم المحسوسات فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده ، فيدرك فيه أموراً زائدة على عالم المحسوسات لا يوجد منها شيء في عالم الحس . ثم يترقى إلى طور آخر ، فيخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات وأموراً لا توجد في الأطوار التي قبله . ووراء العقل طور آخر تفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون من المستقبل ، وأموراً

أخرى العقل معزول عنها ، كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز . وكما أن المميز له لو عرض عليه مدركات العقل لأبأها واستبعدوها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها ، وذلك عين الجهل ، إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه فيظن أنه غير موجود في نفسه . والأكمه لو يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكال وحكى له ذلك ابتداء لم يعلمها ولم يقربها . وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة وهى النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحا وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير ، وهذا لو لم يمر به الانسان من نفسه وقيل له إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لأنكره وأقام البرهان على استحالة وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها فبألا يدركها مع ركودها أولى وأحق . وهذا نوع قياس يكذبه

الوجود والملاحظة . فكما أن العقل طور من أطوار الآدمى يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات الخواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور ، يظهر فى نورها الغيب وأمور لا يدركها العقل . والشك فى النبوة إما أن يقع فى إمكانها أو فى وجودها ووقوعها ، أو فى حصولها لشخص معين»

— فما هو دليل إمكان النبوة ؟

«دليل إمكانها وجودها»

— وما دليل وجودها ؟

«وجود معارف فى العالم لا يتصور أن تنال بالعقل كعلم الطب والنجوم . فان من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا يدركان إلا بالهام إلهى وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل اليها بالتجربة . فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا فى كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ؟ وكذلك خواص الأدوية . فتبين بهذا البرهان أن فى الامكان وجود طريق لادراك هذه الأمور التى لا يدركها العقل وهو المراد بالنبوة ، لأن النبوة عبارة عنها فقط ،

بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل
أحد خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها ،
وما ذكرناه قطرة من بحرها ، وإنما ذكرناها لأن
معلك أنموذجاً منها وهو مدركاتك في النوم ، ومعلك
علوم من جنسها في الطب والنجوم وهي معجزات
الأنبياء ، ولا سبيل إليها للعقل ببضاعة العقل
أصلاً .

- وكيف يدرك ما عدا هذا من خواص النبوة ؟

«يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف»

- وكيف افهمت هذا ؟

«بأنموذج رزقته وهو النوم ، ولولاه لما صدقت
به . فإن كان للنبي خاصية ليس لك منها أنموذج
فلا تفهمها أصلاً فكيف تصدق بها ، وإنما التصديق
بعد التفهم» .

- ومتى يحصل ذلك الأنموذج للسالك ؟

«يحصل في أوائل طريق التصوف ، فيحصل به
نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق
بما لا يحصل بالقياس إليه»

- وما قيمة هذه الخاصية الواحدة ؟

«لأنها تكفيك للإيمان بأصل النبوة» .
- فإن وقع لي الشك في شخص معين أهو نبي أم لا
فكيف يحصل يقيني ؟

«لا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله إما بالمشاهدة
أو بالتواتر والتسامع . فانك إذا عرفت الطب والفقه
يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم
وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم . ولا تعجز أيضاً عن
معرفة كون الشافعي رحمه الله تعالى فقيهاً ، وكون
جالينوس طبيباً معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير ،
بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبها
وتصانيفها فيحصل لك علم ضروري بحالها . فكذلك
إذا فهمت معنى النبوة فأكرر النظر في القرآن والأخبار
يحصل لك العلم الضروري بكونه صلى الله عليه
وسلم على أعلى درجات النبوة ، واعضد ذلك
بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية
القلوب ، وكيف صدق في قوله : من عمل بما علم
ورثه الله علم ما لم يعلم . وكيف صدق في قوله :
من أعان ظالماً سلطه الله عليه . وكيف صدق في
قوله : من أصبح وهمومه هم واحد كفاه الله تعالى

هموم الدنيا والآخرة . فاذا جربت ذلك في ألف
وألفين وآلاف حصل لك علم ضروري لا تمارى
فيه .

– لقد رسمت لى هذا الطريق لأطلب منه اليقين
بالنبوة ، فلم لا أطلبه من المعجزات المادية ؟
« بل من ذلك الطريق فاطلب اليقين بالنبوة ،
لا من قلب العصا ثعبانا ، وشق القمر ، فان ذلك
إذا نظرت اليه وحده ولم تنضم اليه القرائن الكثيرة
الخارجة عن الحصر ربما ظننت أنه سحر وتخيل ،
وأنه من الله إضلال ، فانه (يضل من يشاء ويهدى
من يشاء) .

– فإن كان مستند إيماني في مسألة المعجزة كلاماً
منظوماً في وجه دلالتها ؟

« ينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الأشكال
والشبهة عليها . فليكن مثل هذه الخوارق إحدى
الدلائل والقرائن في جملة نظرك حتى يحصل لك علم
ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين ؛ كالذى
يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن
اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث

لا يدري ولا يخرج من جملة ذلك ولا يتعين للآحاد
فهذا هو الإيمان القوى العلمى .

– عرفتنا طريق الإيمان القوى العلمى بما لا مزيد
عليه ، بقى الذوق ، فما سبيلنا اليه ؟
« أما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد ،
ولا يوجد إلا في طريق التصوف .

– هلا زدتنا شيئاً في حقيقة النبوة ؟
« هذا القدر من حقيقة النبوة كاف في الغرض
الذى أقصده الآن .

وسيدكر لنا حجة الإسلام في الفصل المقبل وجه
الحاجة اليه . فحسبنا هذا ولا نثقل عليه بأكثر من
ذلك ، ولنذهب معه إلى الفصل الآتى فنسأله : لم عاد
إلى نشر العلم بعد أن أعرض عنه ؟

الفصل التاسع

لماذا عاد الغزالي الى نشر العلم بعد الاعراض عنه؟

- كم سنة قضيتها في العزلة ؟ وماذا فتح الله به عليك أثناء ذلك ؟ .

«واظبت على العزلة والحلوة قريبا من عشر سنين ، وبان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا أحصيها مرة بالذوق ومرة بالعلم البرهاني ومرة بالقبول الإيماني ، أن الإنسان خلق من بدن وقلب . وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة . وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة ولاينجو (إلا من أتى الله بقلب سليم) وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخرى كما قال تعالى (في قلوبهم مرض) ، وأن الجهل بالله سم مهلك ، وأن معصية

الله بمتابعة الهوى داؤه الممرض ، وإن معرفة الله تعالى تriage المحي وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه المشفى ، وأنه لا سبيل إلى معالجته بازالة مرضه وكسب صحته إلا أدوية ، كما لا سبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك . وكما أن أدوية البدن تؤثر فى كسب الصحة بخاصية فيها لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لى على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل . وكما أن الأدوية تركبت من النوع والمقدار فبعضها ضعف البعض فى الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلب مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر فى المقدار ، فلا يخلو عن سر من الأسرار هو من

قبيل الخواص التى لا يطلع عليها إلا بنور النبوة .
- ولكن هل للعقل أن يستنبط حكمة لها ؟

« لقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق لاعن سر إلهى فيها يقتضيها بطريق الخاصة . وكما أن فى الأدوية أصولاً هى أركانها وزوائدها هى متماتها لكل منها خصوص تأثير فى أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن متمات لتكميل آثار أركان العبادات . وعلى الجملة فالأنبياء أطباء أمراض القلوب » .

- إذن ما فائدة العقل وما موقفه هنا ؟
« فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأبدينا وسلمنا إليها تسلم العميان إلى القائدين ، وتسلم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . وإلى هنا مجرى العقل ومحطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهيم ما يليق به الطبيب إليه » .

- وكيف اتفق لك معرفة هذه الأمور كلها ؟
« وهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى

المشاهدة في مدة الخلوة والعزلة . ثم رأينا فتور
الاعتقادات في أصل النبوة . ثم في حقيقة النبوة ،
ثم في العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك
بين الخلق» .

— ألم تحاول معرفة العلة في ذلك ؟

«لقد نظرت في أسباب فتور الخلق وضعف
إيمانهم ، فإذا هي أربعة : سبب من الخائضين في علم
الفلسفة ، وسبب من الخائضين في طرق التصوف ،
وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم ، وسبب من
معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس» .

— وماذا فعلت حتى ثبت لك أن مرجع العلة
هذه الأسباب الأربعة ؟

«تتبع مدة آحاد الخلق أسأل من يقصر منهم
في متابعة الشرع وأسأله عن شبهته ، وأبحث عن
عقيدته وسره ، وقلت له : مالك تقصر فيها ؟ فان
كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها
بالدنيا ، فهذه حماقة ، فانك لا تتبع الاثنين بواحد؛
فكيف تتبع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت
لا تؤمن به فأنت كافر فدبر نفسك في طلب الإيمان

وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطنا ،
وهو سبب جريمتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به
تجملًا بالإيمان وتشرفًا بذكر الشرع . فقائل يقول
هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر
بذلك . فلان بين المشاهير لا يصلي ، وفلان يشرب
الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى ،
وفلان يأكل أدرار السلطان ولا يتحرز عن الحرام ،
وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ، وهلم
جرا إلى أمثاله .

«وقائل ثان يدعى علم التصوف ويرغم أنه قد
بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة .

«وقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل
الإباحة ، وهؤلاء هم الذين ضلوا عن طريق أهل
التصوف

«وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول : الحق
مشكل والطريق إليه منسد ، والاختلاط فيه كثير ،
وليس بعض المذاهب أولى من البعض ، وأدلة العقول
متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأي ، والداعى

إلى التعلم متحكم لاحجة له ، فكيف أع اليقين
إلى الشك؟

« وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ،
ولكني قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة ،
وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصاحبة ، وأن
المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم
عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما
أنا من العوام الجهال حتى أدخل في حجر التكليف ،
ولنأنا أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير بها مستغن
فيها عن التقليد . هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة
الإلهيين منهم ، ونعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي
النصر الفارابي ، وهؤلاء هم المتجملون منهم بالإسلام .
- لكن عرفنا في هؤلاء من يقرأ القرآن ،
ويحضر الجماعات والصلوات ، فماذا تقول في ذلك
يا حجة الإسلام ؟

« إنه يعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك
لا يترك شرب الخمر وأنواعا من الفسق والفجور .
- فاذا قيل لمثل هذا الشخص : أن كانت النبوة
غير صحيحة فلم تصلي ؟

« يقول رياضة الجسد ، وعادة أهل البلد !
وحفظ المال والولد » .

- فإذا كان ممن يعترفون بأن الشريعة صحيحة
والنبوة حق ، ولكنه مع ذلك يشرب الخمر ، وسئل
لم يشربها وهو يعلم بتحريمها فماذا يجب ؟

« يقول : إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العداوة
والبغضاء وأنا بحكمتي محتز عن ذلك ، وإنما أقصد
به تشحيد خاطري » .

- قد سمعنا عن ابن سينا أنه فعل شيئاً من هذا
القبيل ، فهلا قصصت علينا أيها الإمام العظيم ما فعل ؟
« ذكر في وصية له كتب فيها أنه عاهد الله تعالى
على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ،
ولا يقصر في العبادات الدينية والبدنية ، ولا يشرب
الخمر تلهيا بل تداويا وتشافيا ! فكان منتهى حالته
في صفاء الإيمان والتزام العبادات أن استثنى شرب
الخمر لغرض التشفي ! فهذا إيمان من يدعى الإيمان
منهم » .

- فماذا كان أثر هؤلاء الذين ذكرتهم في الناس ؟

« انخدع بهم جماعة ، وزادهم انخداعاً ضعف
اعتراض المعترضين عليهم » .

- وماذا فعل هؤلاء المعترضون ؟

« اعترضوا بمجاهدة علم الهندسة والمنطق وغير
ذلك مما هو ضرورى لهم على ما نبهنا عليه من قبل » .

- لقد كنت طبيباً عرفت علة الداء ، وهذا
لا يكفى ، فوجب الطبيب أن يقدم الدواء ، أوقفت
بعد ذلك مكتوف اليدين ، أم ماذا فعلت ؟

« لما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى
هذا الحد بهذه الأسباب ، ورأيت نفسى ملبة بكشف
هذه الشبهة حتى كان إفصاح هؤلاء أيسر عندى من
شربة ماء لكثرة خوضى فى علومهم ، أعنى الصوفية
والفلاسفة والتعليمية والمترسمين من العلماء ، انقدح
فى نفسى أن ذلك متعين فى هذا الوقت محتوم » .

- صدقت أيها الإمام الجليل ، فإذا تفيدك
الخلوة ، وبماذا تنفعك العزلة ، وثم داء عم ، وأطباء
مرضى ، وخلق على الهلاك مشرفون ؟ أترأى ترددت
فى النزول إلى الميدان أم نزلت دون فكر ولا روية ؟
« ترددت وقلت فى نفسى : ومتى تستقل أنت

بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان
زمان الفترة ، والدور دور الباطل ، ولو اشتغلت
بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان
بأجمعهم ، وأنى تقاومهم وكيف تعايشهم ، ولا يتم
ذلك إلا بزمان مساعد وسلطان متدين قاهر » ؟

- لقد فضلت العزلة إذن ؛ فكيف أبحثها لنفسك
والحالة ما قد وصفت ؟

« ترخصت بينى وبين الله تعالى بالاستمرار على
العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة » .

- فماذا جدّ بعد ذلك حتى تركت عزلتك ونهضت
إلى نيسابور ؟

« قدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت
من نفسه لابتحريك من خارج ، فأمر أمر إلزام
بالنهوض إلى نيسابور لتدارك هذه الفترة » .

- أما كان فى استطاعتك التخلف ؟

« بلغ الإلزام حداً كان ينتهى لو أصررت على
الخلاف إلى حد الوحشة » .

- لقد كنت فى حاجة إلى السلطان المساعد كما

قلت ، وهاهو ذا قد هياه الله لك الآن ، فإذا تقول
في رخصتك السابقة ؟

« إن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن
يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة
وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص
نفسك بعسر مقاساة الخلق والله تعالى يقول : (بسم الله
الرحمن الرحيم . ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن
يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم
فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ويقول
عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه : (ولقد كذبت رسل
من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم
نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي
المرسلين) ويقول عز وجل : (بسم الله الرحمن الرحيم .
يس والقرآن الحكيم) إلى قوله (إنما تنذر من اتبع
الذكر) .

– أتركت عزلتك إذن بمجرد أن خطر لك
ذلك ، أم عملت بقوله تعالى (وشاورهم في الأمر)
وبقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) فحاولت أن
تستهدى مع رأيك رأياً ؟

« شاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب ،
والمشاهدات » .

– وبماذا أفتوك ؟

« اتفقوا على الإشارة بترك العزلة والخروج
عن الزاوية ، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين
كثيرة متواترة تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد
قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة . وقد وعد الله
سبحانه بأحياء دينه على رأس كل مائة » .

– فإذا كان أثر ذلك في نفسك ؟

« استحکم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب
هذه الشهادات ، ويستر الله تعالى الحركة إلى نيسابور
لقيام بهذا المهم » .

– وما تاريخ ذلك ؟

« في ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة » .

– ومتى كان خروجك من بغداد ؟

« في ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة » .

– تكون قد لبثت في عزلتك إذن إحدى عشرة

سنة !

« وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها إنقذاح فى القلب فى هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما يخطر إمكانه أصلاً بالبال . والله تعالى مقلب القلوب والأحوال ، وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » .

– لقد عدت إذن إلى نشر العلم بعد أن أعلنت عزوفك عنه ، فكيف كان ذلك ؟

« أنا وإن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت ؛ فإن الرجوع عود إلى ما كان . وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه وأدعو إليه بقولى وعملى ، وكان ذلك قصدى ونيتى » .

– فإلى أى نوع من العلم تدعو الآن إذن ؟

« إلى العلم الذى به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه . هذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى . يعلم الله ذلك منى » .

– وماهى بغيتك من ذلك ؟

« أن أصلح نفسى وغيرى » .

– وهل تعتقد أنك ستصل إلى ما أردت ، وما أردته الصعب ؟

« لست أدرى أصل إلى مرادى أم أخترم دون غرضى ، ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهدة أن (لاحول ولا قوة إلا بالله العظيم) وأنى لم أتحرك ، ولكنه حركنى ؛ وأنى لم أعمل لكنه استعملنى ؛ فأسأله أن يصلحنى أولاً ثم يصلح لى ، ويهدينى ثم يهدى لى ، وأن يرينى الحق حقاً ويرزقنى اتباعه ، ويرينى الباطل باطلاً ويرزقنى اجتنابه » .

• • •

وهكذا يتضح لنا لماذا عاد الغزالى إلى نيسابور ينشر العلم ثانية بعد أن أقلع عن نشره زماناً .

لقد كان يطلب العلم لغير الله ، فأبى العلم إلا أن يكون لله . والله متم نوره ، وهاد من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل العاشر

طريق الارشاد عند الغزالي

– لقد ذكرت أسباب ضعف الإيمان ، ونريد منك أن تذكر لنا الآن طريق إرشاد الخلق وإنقاذهم قبل أن يهلكوا . ولتبدأ بأولئك الذين كانوا لأهل التعليم ضحية .

« أما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من أهل التعليم ، فعلاجه ما ذكرناه في كتاب القسطاس المستقيم ولا نطول بذكره (١) » .

– وماذا تقول فيما توهمه أهل الإباحة ؟
« لقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع ، وكشفناها في كتاب كيمياء السعادة » .

– فماذا ترى فيمن جنت على إيمانه الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة ؟

(١) يراجع ما سبق ذكره في فصل التعليمية .

« لقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة
بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم وغيرها.
ولنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك ، وإنما أوردنا الدليل
من خواص الطب والنجوم لأنه من نفس علمهم ،
ونحن نبين لكل عالم بفن من العلم كالنجوم والطب
والسحر والطمسات مثلاً من نفس علمه برهان النبوة» .
- وما نقول في الذي أثبت النبوة بلسانه وسوى
أوضاع الشرع على الحكمة ؟

« هو على التحقيق كافر بالنبوة ، وإنما هو مؤمن
بحكيم له طالع مخصوص يقتضى طالعاً أن يكون
متبوعاً . وليس هذا من النبوة فى شىء » .
- فما الإيمان بالنبوة إذن ؟

« الإيمان بالنبوة أن يقر باثبات طور وراء العقل
تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة » .
- ولم لا يستخدم عقله فى الوصول إلى هذه
المدركات الخاصة ؟

« العقل معزول عنها كعزل السمع عن إدراك
الألوان ، والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع
الحواس عن إدراك المعقولات » .

- إذن فأنت ترى أن ههنا أموراً خواص لا يدور
تصرف العقل حوالها أصلاً ؟

« بل يكاد العقل يكذبها ويقضى باستحالتها » .
- هلاّ ضربت لها مثلاً يقربها من أفهامنا ؟
« إن وزن دائق من الأفيون سم قاتل لأنه يجمد
الدم فى العروق لفرط برودته ، والذي يدعى علم
الطبيعة يزعم أن ما يبرد من المركبات إنما يبرد بعنصرى
الماء والتراب فهما العنصران الباردان . ومعلوم أن
أرطالا من الماء والتراب لا يبلغ تبريدهما فى الباطن
إلى هذا الحد . فلو أخبر طبعى بهذا ولم يجربه لقال
هذا محال والدليل على استحالتها أن فيه نارية وهوائية ،
والهوائية والنارية لاتزيد برودة ، فتقد الكل ماء
وتراباً فلا يوجب هذا الإفراط فى التبريد . فإن إنضم
إليه حاران فبأن لا يوجب أولى ، ويقدر هذا برهاناً ،
وأكثر براهين الفلاسفة فى الطبيعيات والإلهيات مبنى
على هذا الجنس » .

- ولم كان أكثر براهين الفلاسفة فى هذين
مبنىاً على هذا الجنس ؟
« لأنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه ،

فما أوردوه في كتبهم ، وهى من الخواص العجيبة
المجربة فى معالجة الحامل التى عسر عليها الطلق بهذا
الشكل :

	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

د	ط	ب
ج	هـ	و
ح	ا	و

يكتب على خرقتين لم يصبهما الماء وتنظر اليهما
الحامل بعينها وتضعهما تحت قدميها فيسرع الولد
فى الحال إلى الخروج . وقد أقرؤا بإمكان ذلك ،
وأوردوه فى كتاب - عجائب الخواص - وهو شكل
فيه تسعة بيوت يرقم فيها رقوم مخصوصة يكون مجموع
ما فى جدول واحد خمسة عشر ، قراءته فى طول
الشكل ، أو فى عرضه ، أو على التأريب فىا لیت
شعرى من يصدق ذلك ثم لا يتسع عقله للتصديق
بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين والظهر بأربع والمغرب
بثلاث هى الخواص غير معقولة بنظر الحكمة ،
وسببها اختلاف هذه الأوقات ، وربما تدرك هذه

وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا استحالته . ولولم تكن
الرؤيا الصادقة مألوفة وادعى مدع أنه عند ركود
الحواس يعلم الغيب ، لأنكره المتصرفون بمثل هذه
العقول . ولو قيل لواحد هل يجوز أن يكون فى الدنيا
شئ هو مقدار حبة يوضع فى بلدة فيأكل تلك البلدة
بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يبقى شئ من البلدة وما فيها
ولا يبقى هو فى نفسه ؟ لقال هذا محال وهو من جملة
الخرافات . وهذه حالة النار ، وينكرها من لم ير
النار إذا سمعها .

- نعرف أن أكثر عجائب الآخرة من هذا
القبيل ، فإذا نحن قائلون للطبيعى حتى نقنعه ؟
« نقول للطبيعى : قد اضطررت إلى أن تقول فى
الأفيون خاصية فى التبريد ، ليس على قياس المعقول
بالطبيعة ، فلم لا يجوز أن يكون فى الأوضاع الشرعية
من الخواص فى مداواة القلوب وتصفيها ما لا يدرك
بالحكمة العقلية ، بل لا يبصر ذلك إلا بعين النبوة ؟ »
- ولكن أتراهم يعترفون بمثل هذه الخواص
العجيبة ، ويسلمون بها آمنين !
« بل قد اعترفوا بخواص هى أعجب من هذا

الخواص بنور النبوة ! . والعجب أنا لو غيرنا العبارة على عبارة المنجمين لعقلوا اختلاف هذه الأوقات ، فنقول : أليس يختلف الحكم في الطالع بأن تكون الشمس في وسط السماء أو في الطالع أو في الغارب حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج ، وتفاوت الأعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وكون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب ؛ فهل لتصديقه سبيل إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم لعله جرب كذبه مائة مرة ولا يزال يعاود تصديقه حتى لو قال المنجم : إذا كانت الشمس في وسط السماء ونظر إليها الكوكب الفلاني والطارح هو السرج الفلاني فلبست ثوبا جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ، فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت وربما يقاسى فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم قد عرف كذبه مرات ؟ . فليت شعري من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ، ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص معرفتها معجزة بعض الأنبياء ، كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات لم يعرف قط بالكذب ؟ . وإذا نظر

في إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات وربي الحمار وأركان الحج وسائر تعبدات الشرع لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً . - هذا حسن ؛ ولكن هب أنه قد اعترض عليك بأنه قد جرب من النجوم شيئاً ، وبالمثل من الطب شيئاً ، فوجد بعضه صادقاً ، لذا انقذح في نفسه تصديقه وسقط من قلبه استبعاده ونفرته ، أما هذا الذي ذكرته فهو لم يجربه بعد ، فبم يعلم وجوده وتحققه ، وإن كان يقر لك بأنه من الممكنات ؟ « أقول إنك لا تقتصر على تصديق ماجربته ، بل سمعت أخبار المجريين وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأولياء ، فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ماورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك » .

- فإذا لم أجرب ذلك فكيف أومن به ؟
« يقضى عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً »
- ولم ؟

« لأننا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل ولم يجرب المرض فمرض واه والد مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه »

معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء فقال
هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك ، فماذا يقتضيه
عقله وإن كان الدواء مراكريه المذاق؟ أتناول أو
يكذب ويقول أنا أعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل
الشفاء ولم أجربه؟» .

– لا شك أنى أستحمقه إن فعل ذلك !

«وكذلك يستحمقك أهل البصائر في توقفك» .

– ولكن بم أعرف شفقة النبي وأنه لهذا الطب

من العارفين؟

«وبم عرفت شفقة أهلك وليس ذلك أمراً

محسوساً؟» .

– عرفت بقرائن أحواله وشواهد أعماله في

مصادره وموارده ، علماً ضرورياً ليس فيه من تمار.

«ومن نظر في أقوال رسول الله صلى الله عليه

وسلم وما ورد من الأخبار ، في اهتمامه بارشاد الخلق ،

وتلطفه في حق الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين

الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما يصلح

به دينهم ودنياهم ، حصل له علم ضروري بأن شفقته

على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده . وإذا نظر

إلى عجائب ما ظهر على يديه من الأفعال ، وإلى
عجائب الغيب التي أخبر بها في القرآن على لسانه ،
وفي الأخبار إلى ما ذكره في آخر الزمان وظهور
ذلك كما ذكره ، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور
الذي وراء العقل . وانفتحت له العين التي ينكشف
منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص ، والأمور
التي لا يدركها العقل . فهذا هو منهاج تحصيل العلم
الضروري بصدق النبي عليه الصلاة والسلام» .

– لقد بينت المنهاج أحسن بيان . فما هي

نصيحتك لي بشأنه حتى أرى آياته في الآفاق وفي نفسي ،

ومن ثم يتبين لي أنه الحق؟

«جرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار ، تعرف

ذلك بالعيان» .

– هل من زيادة؟

«هذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه

لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان» .

– بقيت لنا عندك مسألة ؛ فقد ذكرت أن من

أسباب ضعف الإيمان ، سوء سيرة العلماء فهم

قدوة الناس . هم كالعود والناس كالظل ، وهل

يستقيم الظل والعود أعوج ؟ إن ذاك مرض ، فهلا عرفنا للخلاص منه طريقاً ؟

« يداوى هذا المرض بثلاثة أمور » .

— ماهي ؟

« أحدها أن تقول له : إن العالم الذى تزعم أنه يأكل الحرام ، معرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر والربا ، بل بتحريم الغيبة والكذب والنيمة . وأنت تعرف ذلك وتفعله لا لعدم إيمانك بأنه معصية بل لشهوتك الغالبة عليك . فشهوته كشهوتك وقد غلبته كما غلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ولا يناسب زيادة زجر عن هذا المحذور المعين . وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد وإن زجره الطبيب عنه ؟ ولا يدل ذلك على أنه غير ضار أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا محمل هفوة العلماء » .

— فما الأمر الثانى ؟

« أن يقال للعالمى : ينبغى أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه فى الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيهِ ويكون شافعياً له حتى يتساهل معه فى أعماله الفضيلة »

علمه وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له وهو ممكن . فهو وإن ترك العمل يدلى بالعلم . أما أنت أيها العالمى إذا نظرت إليه وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عملك ولا شفيع لك » .

— بقى الأمر الثالث :

« وهو الحقيقة . إن العالم الحقيقى لا يقارف معصية » .

— صدقت ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، ولكن إن زل وفعلها ؟

« فعلى سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصى أصلاً » .

— فما موقف العلم الحقيقى من المعصية ؟

« العلم الحقيقى ما يعرف أن المعصية سم مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا . ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما هو أدنى » .

— فكيف يحصل هذا العلم ؟

« لا يحصل بأنواع العلوم التى يشتغل بها أكثر الناس ، فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على

معصية الله تعالى ، وأما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية وخوفاً » .

– صدقت ، إنما يخشى الله من عباده العلماء .

« وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات » .

– فهل تدل تلك الهفوات على نقص في الإيمان ؟

« ذلك لا يدل على ضعف الإيمان ، فالؤمن مفتن

توَّاب ، وهو بعيد عن الاصرار والاكباب » .

– قد بلغت أيها الإمام ، فلك شكر أخيك في

الدين ، ولك الشكر كله بلسان العارفين ، وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم .

ليت شعري ، إن لم يؤمنوا بمثل هذا الحديث

(فبأي حديث بعده يؤمنون ؟) فادع الله يا حجة الإسلام ، لنا دعوة تكون مسك الختام .

« نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن أثره واجتباه ،

وأرشد إلى الحق وهداه ، وألهمه ذكره حتى لا ينساه ،

وعصمه من شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه ،

واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه (١) » .

(١) هذا ختام المنقذ ، وقد آثرنا أن نجعله ختاماً لكتابنا كذلك

تيمناً بهذه الدعوة الصالحة من ذلك الامام الحالد .

فهرست

صفحة	الفصل الأول :
٥	مقدمة
٥٩	لماذا ألف الغزالي منقذه
٧٣	الفصل الثاني :
٨٣	الغزالي يطلب العلم اليقيني
٨٣	الفصل الثالث :
٩٥	العلم اليقيني وكيف هدى الله الغزالي طريقه
٩٥	الفصل الرابع :
٩٩	ما ذكره الغزالي في أصناف الطالبين
٩٩	الفصل الخامس :
١٠٣	ما ذكره الغزالي في علم الكلام ، مقصوده وحاصله
١٠٣	الفصل السادس :
١٣٥	الغزالي والفلسفة
١٣٥	الفصل السابع :
١٨٣	ما ذكره الغزالي في مذهب التعليم وعائلته
١٨٣	الفصل الثامن :
٢٠٧	طريق الصوفية
٢٠٧	الفصل التاسع :
٢٢١	لماذا عاد الغزالي الى نشر العلم بعد الاعراض عنه ؟
٢٢١	الفصل العاشر :
٢٢١	طريق الارشاد عند الغزالي